مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

الاتجاهات التنظيرية لفن الخطابة عند مفكري اليونان من القرن الخامس حتى مطلع القرن الرابع قبل الميلاد

د. محمود أيوب محمود الشناوي

أستاذ الفلسفة اليونانية المساعد

كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ

DOI: 10.21608/qarts.2023.252967.1821

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٢) العدد (٥٩) أبريل ٢٠٢٣

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

الاتجاهات التنظيرية لفن الخطابة عند مفكري اليونان من القرن الخامس حتى مطلع القرن الرابع قبل الميلاد

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى عرض الاتجاهات التنظيرية لفن الخطابة عند مفكري اليونان "من القرن الخامس حتى مطلع القرن الرابع قبل الميلاد" وهي اتجاهات نظرية وضعها مفكرين كانوا على وعي بأهمية الدور الذي يلعبه فن القول أو "الخطابة" في كسب تصديق – عقليًا كان أم عاطفيًا – من قبل مستمع.

ومن هنا احتلت الخطابة إلى جانب الفلسفة المراتب الخطيرة في الحاضرة الأثينية، إذ لم يكن هذان المجالان مجرد حقول معرفية تجرب في المختبرات وفي القاعات الدراسية، بل إن النزاع كان قائمًا بينهما بشأن السلطة والحكم، فمن ينبغي أن يحكم؟ الفلاسفة أم الخطباء؟ وقد بين البحث أن تنظيرات مفكري اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، كان لها أثرها في تطور فن الخطابة، ولا شك أن محصلة هذه التنظيرات الخطابية وغيرها قد آتت أكلها مع نهاية القرن الخامس ومطلع القرن الرابع قبل الميلاد، حيث فتحت الطريق أمام التنظير "النقدي" للخطابة على أسس فلسفية عند كل من "إيسوكراتيس" و"أفلاطون"، حيث أضحت الخطابة لديهما فن وصناعة واعية بذاتها، عندما حدد لها الهدف والغاية الأخلاقية السامية.

الكلمات المفتاحية: فلسفة، الاتجاهات التنظيرية، الخطابة.

مقدمة:

- في أهمية الاتجاهات التنظيرية لفن الخطابة:

إن أفضل مدخل إلى الخطابة إنما هو تاريخها، وسنشرع فيه، لكن بملاحظتين أوليين: **الملاحظة الأولى:** إن الخطابة سابقة على تاريخها، بل على كل تاريخ، لأنه ليس يعقل أن الناس ما استوسلوا اللغة من أجل المقانعة. ومن جهة، يمكن أن نجد خطابة عند الهنود، والصينيين، والمصريين، لكن الخطابة إبداع إغريقي على غرار التراجيديا والفلسفة، حيث أبدع اليونانيون «التقنية الخطابية» بما هي تعليم متميز، مستقل عن المضامين، يسمح بالدفاع عن أي قضية وعن أي دعوى، كذلك أبدع اليونانيون نظرية الخطابة، المُدَّرسة لا باعتبارها مهارة نافعة، لكن كتفكير يروم الفهم، مثلما أنهم كانوا الأولين الذين أنشأوا نظرية الفن، والأدب، والدين. **الملاحظة الثانية:** أن اليونانيون، أسسوا، ما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، الخطابة التي لم تتطور تقريبًا البتة «خلال ألفيتين ونصف تقريبًا من جورجياس إلى نابليون الثالث» [١].

فقد أمست الخطابة عندهم صناعة مكتملة ملمومًا شتاتها، منظمًا بناؤها، محددًا غرضها، محصورة أجزاؤها، وإن كان بعض الخطباء الأقدمون منهم، قد انصرف الواحد منهم إلى قسم أو أكثر من أقسامها دون غيره يبحثه مقعدًا مفصلًا شارحًا، وصار آخرون إلى إعمال الخطابة إعمال ممارسة لا إعمال تنظير، وإعمال سليقة وموهبة لا إعمال دراية ومدرسة، لكن مع ذلك تبقى المزية عندهم، أنهم أنشأوا علمًا ونسقًا خطابيًا يماثل صناعة الجدل من وجوه ويختلف عنها في أخرى، والذي عندنا أن خطابة اليونان تجمع بين الجدل والبلاغة أو لنقل بين الأمر الحجاجي والأمر البلاغي. وعلى الرغم من كل هذا، فإنه يجوز لإنسان القرن الواحد والعشرين أن يتساءل بصدق، وهو يستحضر ما تثيره

لفظة (خطابة) أو بلاغة من كلام فارغ مزخرف وصور غير قابلة للفهم، وذات أسماء غريبة.

لماذا يحس فيلسوف أو منطقي أنه بحاجة إلى الجمع بين الحجاج والخطابة؟

وبدور الباحث أن يتساءل أيضًا، لماذا أقصيت الخطابة من المقررات الدراسية منذ ردح طويل من الزمان حتى في البلدان التي اتخذت من الإرث الفلسفي اليوناني القديم معينًا لثقافتها؟ هل لإنها غير ذي جدوى أو قيمة؟ وهل هذا ما أدى إلى غياب مصطلح الخطابة عن معجم «لالاند» الفلسفي؟ أيدل ذلك على إنها لا تنطوي في رأيه على أي أهمية أو قيمة؟ ولماذا لم يكلمنا أحد عن الخطابة، إبان دراستنا للفلسفة؟! كنا نعلم أن أفلاطون «٤٢٧-٣٤٧ ق. م» كان يهاجم السفسطائيين ومعلمي الخطابة في كثير من محاوراته، لأنهم كانوا منشغلين بمداهنة سامعيهم أكثر من انشغالهم بتعليمهم الحقيقة العزيزة على سقراط «٤٦٩ – ٣٩٩ ق.م» فهل من أجل هذا لم يعطها أفلاطون أي قيمة؟ وبالتالي أنتفى لها أي دور في عالم الفلسفة؟! أم أن العكس عنده هو الصحيح؟ وما هي ماهيتها وغايتها عنده؟ وهل نجح في بسط سلطة الفلسفة على سلطة الخطابة؟ أم أنه جمع بينهما في سلطة واحدة؟ وحتى نضع المشكلة في إطارها الصحيح، لا بد وأن نتذكر أن الخطابة قد احتلت إلى جانب الفلسفة المراتب الخطيرة في الحاضرة الأثينية، إذ لم يكن هذان المجالان مجرد حقول معرفية تجرب في المختبرات وفي القاعات الدراسية، بل إن النزاع كان قائمًا بينهما بشأن السلطة والحكم، فمن ينبغي أن يحكم؟ الفلاسفة أم الخطباء؟ فإذا كان أفلاطون قد رجح بعد مقتل أستاذه سقراط ضحية الاختيارات السياسية وبالتالي الخطابية كفة الفلسفة، وذهب إلى أن الحاكم ينبغي أن يكون "ملكًا فيلسوفًا"، فإن السوفساطئيين كانوا يرون أن الحاكمية ينبغي أن تعود إلى الخطباء، هنا كانت الخطابة باعتبارها السبيل لممارسة الحكم، بضاعة باهظة الثمن، بل إن بروتاجوراس قد وضع

لبرنامجه التكويني في الخطابة مقابلًا إجماليًا يعادل أجرة عشرة آلاف عامل أي عشرة آلاف دراخما، وهنا نجد أنفسنا مضطرين للعودة إلى أحكام القيمة حتى يتسنى لنا حل لغز هذا النزاع. لكن كيف يمكن تمييز ما له أهمية ومما يمكن إهماله؟ كيف يمكن تمييز ما له قيمة ومما ليس له قيمة؟ أو بالأحرى كيف يمكن للمرء الاستدلال في مجال القيم؟ هل توجد مناهج مقبولة عقلانيًا تمكن من تفضيل الخير على الشر، والعدل على الظلم، والديمقراطية على الدكتاتورية؟ وإذا لم يكن يوجد منطق خاص بأحكام القيمة، فهل العودة إلى صناعة الخطابة، تلك التقنية القديمة للإقناع والتيقن يمكن أن تهدينا إلى ذلك؟؟ لا سيما أن تقنية الخطاب الإقناعية هاته، الضرورية في المناقشة التي تسبق اتخاذ أي قرار متروي، كان القدماء من مفكري اليونان قد طوروها مدة طويلة ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد، يوصفها الصناعة بامتياز، صناعة التأثير في الآخرين بواسطة اللوغوس (Logos)!!] على الرغم من أنه مصطلح يدل دلالة ملتبسة على الكلام والعقل معًا؟!]

- **موضوعات هذا البحث ومنهجنا في معالجته:**

لقد استطعنا حصر أهم الاتجاهات التنظيرية لفن الخطابة عند مفكري اليونان في ثلاث اتجاهات رئيسية، من القرن الخامس حتى مطلع القرن الرابع قبل الميلاد: فتناولنا أولًا: الاتجاه التنظيري السيكولوجي لفن الخطابة عند "أنبادوقليس" و"كوراكس" و"تيسياس"، حيث عرضنا لتصوراتهم حول فن الخطابة من خلال تحليلها والمقارنة بينها في إطار تاريخي، ثم تناولنا ثانيًا: الاتجاه التنظيري السفسطائي لفن الخطابة، فعرضنا لتصور جورجياس للخطابة من منطلق خلفيته الفلسفية التي اتخذت من نقده لفكرة الوجود المطلق لدى "بارمنيدس" أساسًا لها، ثم عرضنا للفكرتين الرئيسيتين لتنظير "بروتاجورس" الخطابي التي كانت الأساس لصناعة المقارعات الجدالية ولبرنامجه "التعليم الخطابي"، ثم عرضنا بعد ذلك لأنطيفون الرامنوسي وضبطه للقواعد الخطابية القضائية، وذلك في

إطار تحليلي مقارن. وتناولنا بعد ذلك الاتجاه التنظيري الثالث: والمتمثل في الاتجاه التنظيري الفلسفي النقدي لفن الخطابة، فعرضنا للتنظير النقدي الواقعي لفن الخطابة عند "إيسوكراتيس" بجانبيه الذاتي والموضوعي، وكذلك لأفلاطون في تنظيره النقدي المثالي لفن الخطابة في إطار تحليلي مقارن. ولعلنا بهذا نكون قد نظرنا إلى فن الخطابة عند مفكري اليونان نظرة أشمل من مجرد جعلها محورًا لدراسة هذا المفكر أو الفيلسوف أو ذاك بمعزل عن السياق التاريخي الحضاري اليوناني، وهو ما سيساعدنا في استخلاص بعض النتائج التي سنوردها في خاتمة البحث، والمتمثلة في هدفه الرئيسي الذي يسعى إليه، وهو إلقاء الضوء على الخطابة بوصفها أداة من أدوات الفلسفة والتفلسف الفعالة، والتي نحن بأمس الحاجة إليها باعتبارها نظرية التواصل الاجتماعي الذي يسعى إلى كسب تصديق عقليًا كان أم عاطفيًا من قبل مستمع كيفما كان. وفيما يلي عرض لموضوعات هذا البحث.

أولًا: الاتجاه التنظيري السيكولوجي لفن الخطابة

إن المعلومات التي قدمتها لنا المصادر القديمة حول المعلمين الأوائل للخطابة الصقلية متضاربة، فبعضها يجعل امبادوقليس أولهم، وبعضها الآخر يمنح حق السبق لكوراكس أو لتيسياس أولها معًا. والغريب أن المصدر المستند إليه عند الجميع هو أرسطو رغم هذا التعارض، فالرأي الأول: يعتمد فيه على شهادة لديوجين اللايرسي، يشير فيها إلى أن أرسطو في كتابه «السفسطائيون» أن أمبادوقليس كان مبدع الخطابة وزينون مبدع الجدل [٢]. أما الرأي الثاني: فيستند إلى الخبر الذي أورده شيشرون على لسان أرسطو في كتاب «بروتوس» يقول فيه: «يروي أرسطو إنه بعد طرد الطغاة في صقلية، استأنفت قضايا الخواص التي توقفت منذ أمد بعيد سيرها أمام المحاكم، وأن هذه الشعوب بما أنها بطبيعتها ذات مزاج صعب ميال إلى النزاع، فإن مواطنيهم كوراكس وتيسياس،

حررا كتابيًا بعض القواعد عن صناعة القول أمام الجمهور» [٣]. هذا ولما كان الكتابان اللذان أوردهما كلا من ديوجين وشيشرون لأرسطو مفقودان، لذا فإننا مضطرون إلى الأخذ بترتيب الشهادتين سالفتي الذكر.

(١) أمبادوقليس الصقلي وتنظيره الخطابي:

ينحدر أمبادوقليس كما هو معروف من مدينة «أواكراجاس» أغنى مدن عصرها في صقلية، عاش في الفترة (٤٩٠ – ٤٣٠ ق. م) وتنقل ما بين صقلية واليونان الكبرى، وكان متميزًا عن كل فلاسفة عصره، إذ كان طبيبًا وكاهنًا وشاعرًا وفيلسوفًا، يضاف إلى ذلك مساهمته الفعالة في إقرار الديمقراطية في مدينته، حيث كان خطيبًا مفوهًا تتسم خطابته بالتفخيم [٤]. ويذكر ديوجين اللايرسي «أن أرسطو قد أكد على أن أمبادوقليس قلد أسلوب هوميروس، وكان متفوقًا في البيان وأنه كان يستخدم الاستعارة وكل المحسنات الخاصة بالشعر [٥] فنظم كتابين بالوزن السداسي هما «التطهيرات» Katharmai و«في الطبيعة» Peri Physeos ويبلغان حوالي الخمسة آلاف من الأبيات. وتناول الأول منهما المعتقدات الدينية الشائعة في صقلية آنذاك بما في ذلك فكرة تناسخ الأرواح، التي كان هو نفسه يؤمن بها إيمانًا راسخًا، وفي هذا الكتاب تضفي الصياغة الشعرية على جدية الفكرة الفلسفية المطروحة مزيدًا من القدرة على الإقناع ومسحة من الفخامة. أما في الكتاب الثاني «في الطبيعة» فإنه يتعامل مع مادة أكثر علمية وأوفر تشبعًا بالمصطلح التقني، وفيه يطرح فكرة أن الحقيقة الأزلية تنحصر في أربعة عناصر أصلية Rhizomata هي التراب والماء والهواء والنار [٦]. ومن هذه الحقيقة الأزلية، وضع أمبادوقليس علمًا عن الطباع، ويعتبر علمًا للنفس على أسس فسيولوجية باستخدامه لنظريته حول الحيويات. تقول هذه النظرية بإن الحيويات الذكية يوجد فيها خليط بنسبة مضبوطة، أما الكائنات الغبية والكسولة فإن خليطها يكون خفيفًا، وما يكون خليطها ثقيلًا

فإنها تتباين، فمن كان تكوين حيوياتهم مناسبًا في الأيدي يكونون حرفيين جيدين، ومن كان لهم في اللسان يكونوا خطباء جيدين[٧]. وانطلاقًا من هذه النظرية التي تعد بمثابة مبادئ أولية وتوجيهات مستمدة من تجربته الفنية في الخطابة، ذهب «أوكتاف نافارا» إلى اعتبار أمبادوقليس معلمًا للخطابة، وأن خطابته لا تقوم على أسلوب المماحكة والنزاع التي تطبع الخطابة القضائية، بل للخطابة السياسية، وبالخصوص خطابة التفخيم، فهو ليس منافسًا لكوراكس وتسياس، بل ممهدًا لتلميذه جورجياس وكل سلالة الخطباء الاحتفاليين [٨].

(٢) كوراكس وتسياس وتنظيرهما الخطابيين:

أ- بين كوراكس وتسياس:

اكتسبت الخطابة القضائية في صقلية شكلًا جديدًا وأهمية قصوى بعد طرد الطغاة عام (٤٦٥ ق. م) لأن كثيرًا من الأسر التي كانت ثرواتها قد صودرت حاولت استعادتها عن طريق المحاكم، وهنا برز اسم «كوراكس» Corax ولمع في الأفق باعتباره مؤسس الخطابة الحرفية، وكتب كتابًا عن مبادئها، حيث كان يعلم حوالي (٤٦٦ ق. م) وهذا ما أجمع عليه أغلب الباحثين، لكننا على الرغم من ذلك نجد نفرًا من الدارسين يمنح «تيسياس» Tisias تلميذ كوراكس السبق في ذلك (وكلاهما من سيراكوزة في صقلية)، حيث اعتقد «شارل بينوا» أن النص الأصلي لكوراكس طاله بعض التغيير على يد تلميذه تيسياس ومعلمي الخطابة في أثينا الذين وسعوه بإضافاتهم وملاحظاتهم[٩]. بينما رأى «ألفرد كروازي» إن كلا من كوراكس وتيسياس وضعا كتيبًا في الخطابة [١٠] واستدل على ذلك بإشارات وردت في كتاب أرسطو «الخطابة»[١١] ومحاورة فايدروس لأفلاطون من قبله[١٢] بينما ذهب «توماس كول» إلى أن تيسياس كان يلقب بكوراكس، وحجته في ذلك أن «الآباء الإغريقيين لم يعتادوا أن يضعوا لأبنائهم اسم «غراب» الذي هو معنى

Kδpaskoς كوراكس باللغة اليونانية القديمة[١٣]. على كل حال فقد أكدت «فرانسواز ديبورد» بأن التردد بين الاسمين قد تم حسمه بهذا القدر أو ذاك من قبل النصوص القديمة والتعليقات الحديثة، التي تجعل من كوراكس المعلم ومن تيسياس التلميذ، والتي تفترض أن التعليم الشفوي لكوراكس تم تدوينه من قِبل تيسياس، بحيث أنه حين يتحدث عن كتيب كوراكس أو كتيب تيسياس، كما يحدث فالمقصود شيء واحد [١٤].

ب- العنصر السيكولوجي وطرح الاحتمالات أساسي تنظيرهما الخطابي:

وما يهمنا في هذا الأمر أن كلا من كوراكس وتيسياس قد أدخلا العنصر السيكولوجي في تنظيرهما الخطابي، كما طورا جانبًا أصبح مميزًا للخطابة الإغريقية بصفة عامة، وهو اللجوء إلى حيلة طرح الاحتمالات المختلفة eikos في جمل متقابلة ومتوازية. فعلى سبيل المثال كتب كوراكس دفاعًا عن رجل متهم بالهجوم على آخر، فقال على لسان المتهم للقضاة «يبدو واضحًا أمامكم أنني ضعيف البدن، أما هو كما ترون فقوي، ومن ثم فإنه من غير المحتمل ضمنًا أنني قد أجرؤ على مهاجمته؟». وطبعًا يجوز للقاضي أن يحول مجرى القضية ويعكس اتجاهها، حيث أن المدعى عليه ضعيف البنية فلا يتطرق إلى الذهن أنه يقوم بالعدوان. ولقد قام تيسياس بإدخال تعديلات على طريقة كوراكس هذه، ففرض أن الرجل الضعيف الشجاع قد يعتدي على رجل قوي جبان، فيرى تيسياس أن كليهما سيكذب في المحكمة، فالجبان لا يجب أن يعترف بجبنه، ولذا سيقول إن أكثر من شخص واحد قد اعتدى عليه، أما المذنب فسوف يثبت تفنيد هذا القول ملتجئًا إلى محاورة كوراكس فيقول: «أنا ضعيف وهو قوي فما كنت لأستطيع الاعتداء عليه، أو سرقته أو ... أو ... وهكذا» [١٥]. ولقد شاعت مثل هذه الحيل في الخطابة الأثينية القضائية، وتبنتها الخطابة في المجالات الأخرى بصفة عامة. كما كتب الخطباء المحترفون نماذج لهذه الخطب، وصار المعجبون من عامة الناس يحفظونها

عن ظهر قلب ويدربون أبناءهم عليها، والجدير بالذكر أنه بعد أن اكتملت الصورة الفنية للخطبة القضائية صارت تتكون من أربعة أجزاء رئيسية هي:

«المقدمة» (Prooimion) وباللاتينية (exordium)

و«الحكاية» أو «الموضوع» (diegesis) وباللاتينية (narration)،

و«البرهان» (Pistis) وباللاتينية (Probatio) وأخيرًا

«الخاتمة» (epilogos) وباللاتينية (peroratio)[١٦].

هذا وعلى الرغم من أن الباحثين لم يجدوا شيئًا من كتابات كوراكس وتيسياس الخطابية، إلا ما ذكره أفلاطون في محاورة فايدروس وأرسطو في كتابه الخطابة في معرض شرحهما ونقدهما لنظريتهما في الاحتمال eikos، وكذا على ما جاء في كتاب الخطابة إلى الإسكندر[١٧] إلا أنهم استطاعوا تكوين فكرة عن طرقهما، فلم يكونا على خلف، بل بالعكس كانا سفسطائيين، يفضلان ما يبدو مستحسنًا في مظهره على الحقيقة، جاعلين جل همهما كسب القضية بأي طريقة كانت. وتبعًا لآراء أرسطو كانت طريقة تعليمهما سريعة لا تستند إلى العلم في كثير أو قليل، وتتلخص في جعل التلميذ يحفظ عن ظهر قلب عددًا هائلًا من الموضوعات العامة والمحاورات القياسية التي يمكن تطبيقها في جميع الأغراض القضائية. ويظهر أنهما وجهًا جل همهما كذلك إلى الاهتمام بجمال الأسلوب من الناحية الأدبية[١٨].

ثانيًا: الاتجاه التنظيري السفسطائي لفن الخطابة

لكي نفهم التطور التنظيري الذي أحدثه السفسطائيون على فن الخطابة فإنه يجب علينا أن نميز بين ثلاثة أنواع من الخطابة السفسطائية; الأول: الخطابة السفسطائية الغربية (الصقلية) وهي التي اهتمت بجمال الأسلوب الخطابي، والثاني: الخطابة

السفسطائية الصقلية التي استندت إلى خلفية فلسفية لتنظيرها الخطابي، والثالث: الخطابة السفسطائية الشرقية (الآيونية) وهي التي عنت عناية بالغة بدقة الأسلوب الخطابي، وسوف يكون تركيزنا في هذه النقطة على النوعين الثاني والثالث من هذه الخطابة فيما يلي:

(١) الخلفية الفلسفية التنظيرية للخطابة عند جورجياس:

برز مع جورجياس الليونتيني Gorgias of Leontin مصدر جديد للخطابة: فلسفي جمالي أدبي تحديدًا.ولد جورجياس حوالي سنة (٤٨٥ ق. م) وعاش مائة وتسع سنين، وعاش بعد سقراط. وكان أيضًا من صقلية وتلميذ أبنادوقليس، ذهب سنة (٤٢٧ ق. م) إلى أثينا في مهمة دبلوماسية، قادمًا من مدينته ليونتيوم (Lêontium) الصقلية لطلب دعم الأثينيين لها ضد تهديدات جارتها مدينة سيراكوزة، وكان الخطاب الذي ألقاه في مجلس الشعب دفاعًا عن مدينته حدثًا أدبيًا أكثر منه حدثًا سياسيًا، إذ بهر الأثينيين بأسلوبه الخاص الذي لم يكن معهودًا في الخطابة قبله، مما دفعهم إلى أن يطلبوا منه العودة إلى أثينا. وقد بلغ من شغف الأثينيين بخطابته إذ كان اليوم الذي يلقي فيه إحدى خطبه يومًا بدون عمل [١٩]. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن جورجياس كان خطيبًا ومعلم خطابة، لكن هذه الخطابة كانت مسنودة بخلفية فلسفية تتحدد من خلالها العلاقة بين الأشياء واللغة، وتجعل من الخطابة العلم الأسمى بل العلم الأوحد، انطلاقًا من موقفها من الوجود. إنها خطابة فلسفية باختصار، لا يمكن اختزالها في مجرد تقنية للخطاب لا تكترث بأية قصدية [٢٠] وهذا ما نوضحه في السطور التالية:

أ- تفنيد جورجياس لفكرة الوجود المطلق لدى بارمنيدس:

من المعروف أن جورجياس كان له كتابًا فلسفيًا عن اللاوجود أو عن الطبيعة، حيث طرح فيه ثلاث قضايا رئيسية هي: [أنه لا شيء موجود/ وأنه حتى لو وجد شيء ما فالإنسان لا يستطيع إدراكه/ وحتى إن استطاع إدراكه فإنه لا يمكن التعبير عنه أو شرحه للآخرين] الأمر الذي دعا كثير من مؤرخي الفلسفة إلى القول بأن جورجياس ألغى مقياس

الحقيقة والمعرفة معًا، وأن فلسفته بالأساس فلسفة عدمية. وعلى عكس هذه النظرية السطحية، ذهب فريق آخر من الباحثين الذين عملوا على إعادة الاعتبار للسفسطائيين، إلى التأكيد على أن نص جورجياس المتبقي من كتابه (عن اللاوجود أو عن الطبيعة) لا يشكل مذهبًا عدميًا، بل هو انتقاد لمذهب الوجود لدى بارمنيدس(٥٤٠ – ؟ ق.م) (حيث أراد أن يثبت بطلان النظرة الوجودية كما طرحها بارمنيدس) بل ودحضه من الأساس. فلا يعقل مثلًا أن الإنسان إذا استطاع إدراك شيء فإنه لا يمكن التعبير عنه أو شرحه للآخرين كما ذهب إلى ذلك جورجياس، لأنه بذلك يتنكر للخطابة التي تقوم في الأساس على التواصل بين الناس، والتي كانت مجال تخصصه ومصدر شهرته ومجده [٢١]. وكل ما في الأمر أن جورجياس عمل في كتابه المذكور آنفًا على تفنيد فكرة الوجود المطلق المنفصل عن تجلياته عند الذات المدركة له، وإثبات استقلالية الفكر عن الحقيقة الجوهرية، لذلك لم ينكر الإدراك الحسي ولا قيمته، وإنما استبعد فقط فكرة كون الإدراك الحسي يقدم للنفس الشيء المدرك كما هو بالضبط، فيجعل المعرفة بالتالي، مطابقة لموضوعها. فليس هناك نقل للموضوع تجاه الذات ولا نقل للموضوع من المتكلم إلى المخاطب. بالفعل يحمل الخطاب معطى، لكن هذا المعطى ليس هو الوجود كما هو، بل هو نتاج لما يدركه المتكلم من ظواهر الوجود. والمتكلم يكون خطابه انطلاقًا من إدراكه الحسي المباشر، ومن معارفه وتجربته السابقة، ولن يكون خطابه مفهومًا وذا معنى عند المستمع إلا إذا كان لدى هذا الأخير إدراك سابق لما يدور حوله الخطاب. فإذا تحدثنا عن لون ما، فلا بد أن يكون السامع مدركًا لهذا اللون لكي يفهم كلامنا. بدون ذلك لن يكون لكلامنا أي معنى عنده، لن يكون الخطاب مفهومًا، إذن، إلا إذا توافر لدى المتكلم والمستمع رصيد من الإدراكات الحسية المتشابهة، وحد أدنى من المعارف المشتركة [٢٢].

ب- تصور جورجياس للخطابة مرتبط بتصوره للوجود

ما يدركه الإنسان إذن عند جورجياس ليس هو الواقع، بل تمثلاته لتجليات هذا الواقع. فليس هناك وجود مطلق مستقل عن تجلياته عند الذات المدركة له. وعلى هذا الأساس فإن تصور جورجياس للخطابة مرتبط بشكل كامل بتصوره للوجود. ولقد تم الاحتفاظ بمثال رائع عن هذه العلاقة من خلال خطبته في «مديح هيلينا» وخطبته «الدفاع عن بالاميد»، وهما من الخطب التي كان جورجياس يؤلفها لتلامذته كنماذج تطبيقية مطروحة للتقليد، والتي تكشف عن براعته في الدفاع عن قضايا تبدو خاسرة ويصعب الإقناع ببراءة صاحبها. فهيلينا تعتبر في الأسطورة اليونانية المرأة المشؤومة التي كانت السبب في نشوب حرب طروادة، وبالاميد كان حسب الأسطورة، من قادة جيش اليونان في تلك الحرب، أُتهم بالخيانة ظلمًا وحكم عليه مجلس الحرب بالإعدام [٢٣]. وقد افتتح جورجياس خطابه بمدح ميلاد هيلينا، ثم جمالها، فقال: «قد أحدثت في أكثر من رجل أكثر من رغبة عشقية، لها وحدها، لأجل جسدها، إنها تجعل عددًا كبيرًا من الأجساد يحتشد، وحشدًا من المحاربين» ... لكن إذن كيف يغفر لها كونها مكنت غيرها من سبيها؟ أحصى الخطيب، بضرب من التعداد التام، كل الأسباب الممكنة لهذا السبي: إما أنه راجع إلى مشيئة الآلهة والقدر، وإما أنها اختطفت بالقوة، وإما أنها قونعت بالخطاب، وإما أنها غلبت عليها الرغبة. والحال أن هيلينا لم تكن في أي من هذه الحالات حرة، بل إن قوة أكبر من قوتها قد سيطرت عليها؛ فهي إذن ليست مذنبة. لقد توقف جورجياس كثيرًا عند الحالة الثالثة، سلطة الخطاب، فكان دفاعه عن هيلينا في الواقع دفاعًا عن الخطابة [٢٤]. والحق أنه استغل التغيير الظاهر في الوجود، فإذا كان الظاهر متغيرًا، كان الوجود تبعًا لذلك متغيرًا. وهو أمر طبيعي عنده باعتبار الواقع متناقض، وإن مبدأ الهوية لا يولد سوى وجودية تتناقض توًا مع نفسها. هذا التناقض الذي يشكل الواقع

لا يمكن تذليله، فالمتضادات لا يمكن أن تنسجم داخل حصيلة جدلية، بل تتجابه في مواجهة غير قابلة للحل. من هنا كان تصور جورجياس للواقع تصور تراجيدي، فالتناقضات لا تهدأ ولا تسكن أبدًا، وإبطالها مستحيل. لا يبقى، إذن، سوى اتخاذ موقف لصالح هذا الخيار أو ذاك من أطراف التناقض، ودفع الناس إلى ذلك بواسطة الرقة الإقناعية للغة المتمثلة في الخطابة [٢٥].

ج- الأساليب الجورجية في فن الخطابة:

مما تقدم يتضح لنا أن إسهام هذا السفسطائي الشهير في الخطابة كان ضخمًا، بحيث صار هذا الفن يقرن باسمه، وأصبح الناس يتحدثون عن «الأساليب الجورجية» Schemata. ويتمثل جوهر هذه الأساليب في ترتيب وتنسيق الأفكار والمفردات في مجموعات متوازية أو متقابلة مما يزيد تأثيرها، وكذا صقل الجملة بهدف الوصول إلى إيقاع صوتي مثير للانتباه، وهي جمل متداخلة ومتساوية في الطول Parisosis والنغم الصوتي Paromoiosis وتنتهي بالسجع homoioteleuton. وكان جورجياس منشغلًا تمام الانشغال بالشكل دون المضمون، يقول في إحدى خطبه الجنائزية التي ألقيت تكريمًا لموتى معركة «بلاتايا» عام (٤٧٩ ق. م) «مع أنهم ماتوا فإن لهفتنا عليهم لم تمت معهم، إنها خالدة ترفرف فوق أجسادهم الفانية، تحيا بينما هم في عالم الموتى» (شذرة 6، 15، 16). وهي عبارات جوفاء وقد تكون مضحكة، لأنها تلف وتدور حول معنى واحد إذا كان هناك أي معنى فيها. ويبدو أن فن النثر الإغريقي في بداية عهده كان ينشد منافسة الشعر في خلق إيقاعات شكلية مماثلة للعروض. وبينما كان الشعر نفسه يمر في مرحلة انتقالية وتغير ثوري، لم يكن هذا النثر بقادر على أن يقدم البديل. ولم يتجاوز أفلاطون الحقيقة عندما شبَّه الخطابة في محاورة «جورجياس» بفن الطبخ، لأن جورجياس برأي هذا الفيلسوف لم يعدو كونه طباخًا ماهرًا [٢٦]. وإيما كان الأمر فقد أنشأ

جورجياس الأسلوب الخطابي المعروف باسم أسلوب المحافل (الخطابة الاحتفالية أو خطابة التفخيم) الذي نقحه إيسوكراتيس مطلع القرن الرابع حتى وصل به إلى حد الكمال، كما كان جورجياس بحق فنانًا واعيًا من طراز فريد، حاول أن يعطي النثر شكلًا مؤثرًا باستخدام الكلمات النادرة، وإدخال الموسيقى الداخلية في الأسلوب عن طريق الكلمات والعبارات المتقابلة، وبذلك شق الطريق أمام من جاء بعده من كتاب النثر وليس في كتاباته ذاتها. وأخيرًا كان اهتمام جورجياس بالجانب الإقناعي أو الحجاجي في الخطابة من أبرز إسهاماته والتي دعت أرسطو إلى أن يشير في سياق حديثه عن السخرية في كتابه «الخطابة» إلى كلام لجورجياس جاء على شكل قاعدة حجاجية متعلقة باستعمال السخرية ومواجهتها. حيث قال أرسطو «فيما يتعلق بالسخرية التي يبدو لي أنها يمكن أن تفيد في المناقشات، يقول جورجياس، وهو على حق في ذلك، إنه ينبغي تقويض جدية الخصوم بواسطة السخرية وتقويض سخريتهم بواسطة الجدية»[٢٧]. هذا وقد سار تلامذة جورجياس واتباعه على دربه مهتمين بجمال الأسلوب الخطابي، ونذكر منهم «ليكيمنيوس الفاروسي» و«بولوس الإغريجنتي» الذي قال عنه أفلاطون: «وماذا نقول عن بولوس بموسيقاه الخطابية، وتكراراته، وأمثاله وحكمه، وصوره وألفاظه التي منحها له ليكيمنيوس لخلق التناغم»[٢٨]. كما نذكر كذلك «الكيدامس الإيلي» الذي انتقده أرسطو في كتابه «الخطابة» وهو في معرض حديثه عن «عيوب الأسلوب» حيث أخذ عليه استعمال للكلمات المركبة والألفاظ الغريبة والإكثار من النعوت والاستعارات، واعتبر أنه استخدمها بطرق تصلح للشعر أكثر منه للخطابة [٢٩]. ولا يفوتنا في هذا الإطار أن نذكر كذلك «ثراسيماخوس الخلقيدوني» الذي تحدث أفلاطون عن براعته في إثارة الأهواء حيث قال: «إن فن معلم الخطابة الخلقيدوني المقتدر، في استدرار الشفقة على الشيخوخة والفقر بواسطة النحيب، يبدو لي بدون مثيل، وهو قادر كذلك على إثارة سخط الجماهير وتهدئة غضبها بتراتيله السحرية، كما كان يقول، كما أنه يتقن إثارة الشكوك وإزالتها كيفما كان

الباعث وراءها»[٣٠]. وجملة القول إن ثراسيماخوس اهتم بالإلقاء الخطابي الأمر الذي دعاه إلى تأليف كتابًا في علم البلاغة والمصادر البلاغية، ويضيف أرسطو كتابًا آخر له بعنوان «فن إثارة الشفقة» [٣١].

(٢) بروتاجورس وصناعة المقارعات الجدالية:

إذا كانت الخطابة السفسطائية «الصقلية» قد اهتمت بجمال الأسلوب الخطابي من جهة وبتدعيمها بخلفية فلسفية من جهة أخرى، فإن الخطابة السفسطائية الأيونية، قد عنيت بدقة الأسلوب الخطابي والاهتمام بالناحية المنطقية، وهذا ما نراه واضحًا من خلال عرضنا لأبرز إسهامات أعلامها التنظيرية، والذي يأتي بروتاجوراس على رأسهم. يعتبر بروتاجوراس (٤٩٠-٤٢٠ ق. م) أقدم الفلاسفة السفسطائيين وأكثرهم ذكاء وموهبة، ولد في أبديرا في أقصى الشمال الشرقي من بلاد اليونان، وهي نفس المدينة التي ولد بها ديمقريطس، وكان معاصرًا لسقراط وبروديكوس ولكنه كان يكبرهما سنًا، ويقال إنه مات غارقًا في سفينة هرب فيها من محاكمته بسبب إنكاره للآلهة[٣٢]. وتتلخص أهم إسهامات بروتاجوراس في الخطابة، إنه كان أول من علم القواعد النحوية، وأصبح معروفًا بمهارته في استعمال الكلمات بروية (وعلى طريقه قسم أرسطو الكلمات بحسب جنسها في المذكر والمؤنث، وفي اللامذكر واللامؤنث) وميَّز في الكلام أو الخطاب بين أربعة أقسام: الدعاء أو التمني؛ السؤال؛ الجواب؛ الأمر. وقد وجد تناقضًا في البيت الشعري الأول في الإلياذة «انشدي أيتها الربة في غضب» حيث صيغة الأمر المستخدمة عند هوميروس والموجهة للإله لم تتطابق بنظره، مع التمني الذي يتطلبه المعنى [٣٣] لأنه وقف نفسه على دراسة الأدب، ولا سيما دراسة هوميروس، فذاع صيته[٣٤].

أ – الفكرتان الرئيسيتان لتنظير بروتاجوراس الخطابي:

تتحدد خطابة بروتاجوراس بشكل مباشر من خلال فكرتان رئيسيتان له. تتعلق الأولى بالخطابات المتعارضة، وتتعلق الثانية بجعل الحجة الأضعف هي الأقوى [٣٥]. فأما بالنسبة للفكرة الأولى والتي تتعلق بالخطابات المتعارضة، فقد اتخذها بروتاجوراس منهجًا أخضع له برنامجه التعليمي، بحيث كان يعلم تلامذته كيف يدافعون بالتتابع عن وجهتي نظر مختلفتين، كالمدح والذم، والاتهام والدفاع، بحيث يمكن للتلميذ في نهاية المطاف أن يختار بين أحدهما، أو أن يواجه كل حجة يمكن مواجهتها بحجة مضادة لها، من خلال استخلاص نتيجة معكوسة من أفكار وألفاظ الخصم، وفي هذا السياق ألَّف كتابين حول «الحجج المتضادة» وكتابًا حول «صناعة المقارعات الجدالية»[٣٦]. أما فيما يخص الفكرة الثانية والتي تجعل الحجة الأضعف أقوى. فقد كان بروتاجوراس يقصد بها فن قلب الحجج لكي تصبح الظروف غير المواتية في قضية ما وسيلة للتأييد والتبرئة، وتصبح الظروف المواتية مورطة. وقد قدم لنا أرسطو إحدى الطرق العملية لتطبيق هذه الفكرة، حين اعتبر أن ما يدعيه السفسطائيون من جعل الحجة الأضعف أقوى يعود إلى استعمال هذا النوع من الاحتمال الذي هو مجرد خديعة لا توجد في أية صناعة إلا الخطابة والمقارعات الجدالية [٣٧].

ب – الجدل أساس برنامج بروتاجوراس التعليمي الخطابي:

لقد شكلَّت المقارعات الجدالية المحور الرئيسي الذي يدور حوله برنامج بروتاجوراس التعليمي، وهذا ما أكده لنا أفلاطون في محاورة السفسطائي، بصفة خاصة، ومجموعة من محاوراته بصفة عامة؛ من أن بروتاجوراس جعل من المقارعات الجدالية عادة سيدرج الإثينيون على ممارستها بصورة كبيرة، حيث يدور النقاش في هذه المقارعات حول مواضيع حددها لنا أفلاطون في: القضايا الإلهية –وما يرى من الأرض والسماء–

وتكون الأشياء وماهيتها- والتشريع والسياسة- والاعتراضات التي يمكن تقديمها حول كل الحرف والصناعات [٣٨]. وعن كيفية سير هذه المقارعات، ما أوضحه لنا أفلاطون في سلسلة محاوراته، من أنها كانت فنًا حقيقيًا له طبيعته وشروطه الخاصة، ففي بداية المقارعة، يتم توزيع الأدوار، حيث يضطلع السفسطائي، في الغالب الأعم، بدور السائل، وعلى أحد الحاضرين أن يقوم بدور المجيب، ويتم اختياره عادة من بين الشباب الأكثر تحمسًا، وإذا ما اعترف المجيب بهزيمته يتم اختيار مجيب آخر يكون حرًا في تنازلات الأول أو قبولها، لتستأنف المقارعة من جديد، وأحيانًا أخرى نادرة يقبل السفسطائي دور المجيب، أو يقوم بالدورين معًا بالتتابع لبيان براعته، تلك البراعة أوضحها لنا أفلاطون من خلال محاوراته كما أشرنا، وكذلك أرسطو من خلال كتابيه (الجدل) و(التفنيدات السفسطائية). وعلى كل حال فقد فتح بروتاجوراس الطريق أمام التفكير في اللغة باعتبارها فرعًا من فروع المعرفة، وأداة من أدوات الحجاج لا يمكن أن تتطور الخطابة إلا بتطويرها، من خلال إتقان المناقشة وتركيزها على جانب الاستدلال والمواجهة بين الأفكار، وتقليب جوانبها والبحث فيما يمكن من الإقناع بها، وهكذا برع بروتاجوراس بخطابته نحو الجدل، كما أنه بتوجيه تعليمه نحو تقنية قلب الحجج والنظر في الخطاب والخطاب المضاد، كان يفي بوعده بتكوين رجل السياسة، إذ زيادة على آليات الاستدلال وتقنيات الحجاج، قدم طريقة للتحليل ووسيلة للبحث والتقييم تمكن السياسي من الإحاطة بجميع جوانب القضية المطروحة[٣٩].

(٣) أنطيفون الرامنوسي وضبط القواعد القضائية للخطابة:

قبل أن ينقضي القرن الخامس قبل الميلاد، ظهر أبرع محترفي فن كتابة الخطب الأثينيين، ألا وهو أنطيفون المعروف بالرامنوسي The Rhammnusiam الذي أتى من رامنوس Rhamnus في اتيكا Attica وقد وُلد في حوالي عام (٤٨٠ ق. م) واحترف

الخطابة، وكان زعيمًا لمدرسة خطابية اشتهر من بين تلاميذها «إندوكيديس» Andocides. وقد تزعم الحزب الأوليجاركي واشترك في حكومة الأربعمائة، وقد أعدم لدوره في الثورة الأوليجاركية عام (٤١١ ق. م) وذلك بعد سقوط تلك الحكومة [٤٠].هذا وينبغي أن نضع في الاعتبار أن أنطيفون الرامنوسي، ليس هو أنطيفون الشاعر والروائي وليس هو كذلك أنطيفون العراف، المعاصرين له[٤١]. إذ يأتي أنطيفون الرامنوسي على رأس قائمة أفضل الخطباء الأثينيين العشرة المكرسة في التراث الغربي، وهم حسب الترتيب الزمني: (أنطيفون، واندوكيديس، وليسياس، وإيسوكراتيس، إيزايوس، إيسخينينس، ليكورغوس، ديموستثنييس، هيبيريديس، دينارخوس)[٤٢]. وكانت الخطابة اليونانية قد بلغت في عصره، مرحلة من التطور امتلكت فيها كل أدواتها، لكن بعضها كان ما زال بحاجة إلى التطوير وبعضها الآخر إلى التصحيح أو التكييف بشكل مضبوط مع متطلبات الممارسة العملية، وذلك ما يشكل تنظير أنطيفون وإنجازه، الذي سيأخذ تعليم الخطابة على يديه شكلًا منتظمًا سيطرد بعده، وسيبقى على حاله تقريبًا عند خلفه من معلمي الخطابة[٤٣].

أ – بنية الخطبة وأجزاءها عند أنطيفون:

وإذا كان علماء الإسكندرية قد تركوا لنا قائمة بالخطباء اليونان يتصدرها اسم أنطيفون (كما سبقت الإشارة) فإنهم أيضًا قد أكدوا لنا أن خطب أنطيفون كانت رباعية البنية (Tetralogiai) قصد بها وضع الخطوط العريضة لكيفية بناء الخطبة المكونة من أربعة أجزاء، هي على التوالي: «المقدمة» و«الحكاية» (أي طرح موضوع القضية) و«البرهان» وأخيرًا «الخاتمة». وقد وصلنا من أعماله مجموعة من خمس عشرة خطبة من بين أكثر من ستين يذكرها له القدماء، وهي مقسمة إلى نوعين: ثلاث خطب حقيقية، من الأرجح أنه كتبها لأشخاص لجأوا إليه باعتباره محترفًا لكتابة الخطب، وأعاد تنقيحها

من أجل تقديمها لتلامذته، والخطب الاثنتا عشرة المتبقية هي مرافعات متخيلة معدة أصلًا للتعليم، قسمها إلى ثلاث مجموعات تضم كل واحدة منها أربع مرافعات، تتضمن كل مجموعة منها، على التوالي، مرافعة اتهام ومرافعة دفاع وتعقيبًا على الاتهام وتعقيبًا على الدفاع، ومن ثم سميت بالرباعيات(٤٤). كل تلك الخطب، الحقيقية منها والمتخيلة، هي من الخطب القضائية التي اختص فيها أنطيفون، وتدور كلها حول قضايا جرائم قتل، حيث تتناول خطبته الرباعية الأولى قضية قتل معروضة على محكمة الاريوباجوس، أما الثانية فتعالج تهمة القتل الموجهة إلى صبي تورط في عملية قتل صبي آخر عن طريق الخطأ (أي برمح يستخدم أثناء التدريبات الرياضية في الجماسيون) وموضوع الخطبة الثالثة هو موت رجل مسن من جرح أصابه به شاب صغير، وقد تكون الخطب الثلاث مكتوبة بمناسبة محاكمات فعلية في أثينا فهي تقترب من روح خطبتين ألفهما أنطيفون، الأولى بعنوان «قتل هيروديس» وتتناول قضية اختفاء رجل ودفاع آخر عن التهمة الموجهة إليه بقتله. أما الخطبة الثانية فهي «عن المغنى» وهي عبارة عن دفاع قائد جوقة أعطى مشروبًا لأحد الصبية بقصد تحسين صوته فتسبب في قتله دون قصد(٤٥). وهذا يدل على أن أنطيفون لم يكن خطيبًا منظرًا فحسب، بل مارس الخطابة في الحياة العملية، وفي عصره كانت الخطابة البلاغية في مرحلتها التجريبية، وهذا ما انعكس على خطبه، ففيها نجد الأسلوب الصارم، ومن عادة الأسلوب الصارم أن يطيل نفسه بوساطة فيض غزير من الألفاظ، ويمكننا العثور على مقدار عظيم من هذه الكلمات في الشعراء ولا سيما إيسخولوس(٤٦). وليس أنطيفون هو الوحيد بين كتاب النثر، الذي يستعمل الألفاظ الشعرية، فإن أفلاطون، أعظم أئمة النثر الاتيكي، كان في بعض الحالات أكثر شاعرية من الشعراء أنفسهم، مع أن عبقريته كانت كافية لاجتناب أي معنى صارم أو غير ملائم. ومثل هذه الصرامة قد تكون ذات فائدة إيجابية للخطيب للحصول على أثر خاص، إذ ان أية كلمة غير عادية على أسوأ الفروض، لا بد أن تجتذب الانتباه، وعلى خير

الفروض، ترفع من قيمة جملة عادية. ولهذا وضع ديونوسيوس، أنطيفون وايسخولوس معًا كأستاذين في الأسلوب الصارم، كما أن في بعض كلمات الخطيب وعباراته، فيما عدا معالجته لمواضيعه، سمة من عظمة ايسخولوس[٤٧]. ومن المميزات البارزة في لغة أنطيفون الخطابية، كثرة استعماله التعقيد في كل من الأفعال والأسماء، فمثلًا كان يستخدم اسم فاعل أو اسم مفعول لجماد، أو صفة مع أداة تعريف، بدلًا من اسم، كما كان يستعمل المصدر مع فعل مساعد، بدلًا من الفعل. وبواسطة المهارة التي أصبحت عادة عند الكتَّاب المتأخرين، استعمل لفظ «الجميل» كمرادف للاسم المعنوي «جمال» وأن «تكونوا قضاة الحقيقة» بدلًا من «احكم على الحقيقة»[٤٨]. الأمر الذي أدى إلى استخدام أنطيفون كثيرًا من المحسنات البلاغية «السجع» في خطابته، ولا شك أن هذه الميزة، من تركيز للفكر ودقة في التعبير ضرورية للمترافع في دور القضاء، ولذلك لم يكن غير طبيعي أن يطابق الأسلوب السجعي في أثينا نهضة الخطابة القضائية، وأن أنطيفون أول من ترافع بصفة خاصة على أسس علمية؛ حيث مال لإظهار المقدرة البلاغية لذاتها من ناحية، وصاحبها من ناحية أخرى مهتم بأن يقنع المحكمة بعدالة قضيته وأنه رجل بسيط وعادي، وهو أمر يتطلب ألا يظهر ذكاء ومهارة أكثر من اللازم. وبوجه عام يمكن القول إن أنطيفون كان خطيب فنان لا يخشى الجملة المصقولة إذا كانت مؤثرة، كقول رجل فقد ابنه في إحدى خطبه «أي بني لقد دفنت حيًا» أو عندما يدافع متهم عن نفسه فيتوسل من أجل الرحمة والرأفة إذ يقول «ها أنا ذاهب لأتسول في بلاد أجنبية مسنًا منفيًا ومنبوذًا». وفي خطبة «قتل هيروديس» يقول المتهم «إنني لا أحاول تجنب المحاكمة على يد عدالتكم الديموقراطية». ويضيف «وبالطبع يمكنني أن أثق تمامًا في عدالتكم، حتى دون أن أضع في اعتباري القسم الذي التزمتم به»، وهذا المتهم يلجأ إلى فكرة الانتقام الإلهي مذكرًا المحكمة بأن تلتزم بها، وهي فكرة من المحتمل أن الخطيب نفسه لا يأخذها مأخذ الجد ولا تعدو كونها وسيلة إقناع وجدها مواتية هنا. ومع هذا التنازل إلى حد اللجوء إلى

المعتقدات الشعبية التقليدية فإن أنطيفون ظل يحتفظ بوقاره ولم يصل إلى حد الإسفاف، كما فعل خطباء آخرون في العصور التالية. حيث أقاموا دفاعهم على أمور محض شخصية وخاطبوا العواطف لا العقول(٤٩).

ثالثًا: الاتجاه التنظيري الفلسفي النقدي لفن الخطابة:

لقد سيطر الاتجاهان التنظيريان سالفي الذكر على الخطابة في القرن الخامس قبل الميلاد، والحق أنهما كانا استجابة للعديد من حاجات اليونانيين الضرورية: حاجة إلى تقنية قضائية، وحاجة إلى نثر أدبي، وحاجة إلى الفلسفة، وحاجة إلى التعليم. فقد وضع أعلام الخطابة الذين عرضنا لهم آنفًا قواعد ثابتة وفنية لها؛ سيكون لها أثرها بلا شك على معلمي الخطابة في القرن الرابع قبل الميلاد، والذين سيصلون بهذا الفن إلى حد الكمال، وما كان لهذا الحد أن يكتمل إلا بظهور الاتجاه الفلسفي النقدي مطلع هذا القرن. وقد تمثل هذا الاتجاه النقدي بظهور النظرية النقدية الواقعية للخطابة لدى إيسوكراتيس، والنظرية النقدية المثالية التي ترفض الأشكال الممجوجة للخطابة لدى أفلاطون الذي سحب البساط من تحت أقدام السفسطائيين اللذين اعتبروا الخطابة "سلطة" تمنح صاحبها قوة خرقاء، فبدت لديه "كما سنعرض لاحقًا" أولًا: أنها ليست بسلطة، وإنما مجرد قدرة، وهي ثانيًا: ليست وسيلة للهيمنة، بل وسيلة للدفاع عن النفس أمام أي تجاوز أو تعسف، وللدفاع عن القيم المشتركة داخل المدينة، والعرض التالي سيزيد الأمر توضيحًا:

(١) النظرية النقدية الواقعية لفن الخطابة عند إيسوكراتيس

قبل أن نعرض لمعالم هذه النظرية النقدية الواقعية لفن الخطابة، يعن لنا أن نعطي نبذة مختصرة عن صاحبها الذي لم ينال الشهرة الكافية كغيره من مفكري وفلاسفة اليونان.

أ- إيسوكراتيس وتميزه في فن الخطابة:

عاش إيسوكراتيس، الأثيني الأصل، بن إيثودوروس، تسعة وتسعين سنة فيما بين عامي (٤٣٦-٣٣٨ ق. م) أي أن حياته غطت معظم فترات ازدهار النثر الأدبي الاتيكي لا سيما فن الخطابة [٥٠]. وظل متمتعًا بكامل قواه العقلية حتى السابعة والتسعين من العمر، وقد قضى سني طفولته وشبابه بين أهوال الحرب البلوبونيزية، وعندما فشلت الحرب الصقلية كان في شرخ الصبا، فرجحت الكفة ضد أثينا. وفي ريعان الشباب أبصر بعينيي رأسه خراب مدينته وتسليمها إلى «لوساندر»، وعاش إبان السيادة الإسبرطية، وشاهد أساس الحلف الأثيني الجديد سنة (٣٧٨ ق. م) وقيام وانهيار سلطة طيبة، وكان في سن الشيخوخة تقريبًا عندما اعتلى «فيليب» عرش مقدونيا، وقد أخطاه قانون الفناء فترة من الزمن فوضع أهم أعماله بعد الثمانين من عمره، ولا يظهر في خطبته «فيلبوس» Philippus التي كتبها في سن التسعين أي نقص في قواه، وكتب مؤلفًا من أطول مؤلفاته «الباناثينايكوس» Panathenaicus في العام السابع والتسعين من عمره، وعاش ليهنئ فيلب على انتصاره في خايرونيا Chieronea سنة (٣٣٨ ق. م)[٥١]. ولا شك أن حياة طويلة كهذه، كان لها انعكاساتها على تطور فكر وأسلوب إيسوكراتيس الخطابي، وقد تنبأ سقراط بذلك من خلال شهادته التي نقلها لنا أفلاطون من خلال محاورة «فايدروس» قائلًا: «إنه سيبلغ مكانة بارزة في عالم الخطابة والفلسفة» [٥٢]. حيث بدأ حياته بدراسة الخطابة، فاستمع إلى محاضرات جورجياس، عندما استقر الأخير في تساليا، كما درس أصول اللغة على يد بروديكوس، وسمع بروتاجوراس، ولكنه تأثر بعلم ومنهج سقراط الفلسفي، لكن ميوله للخطابة كانت أكثر من الفلسفة، والفلسفة العملية أكثر من التجريدية التأملية [٥٣]. لكن على الرغم من دراسة إيسوكراتيس للخطابة، إلا أن مؤهلاته الطبيعية حالت أن يصبح خطيبًا مفوهًا، إذ كان صوته ضعيفًا ويتصف بالخجل الشديد، وأدى

فشله هذا بسبب عجزه الطبيعي واضطراره إلى كسب رزقه بعد أن استنفذت الحرب البلوبونيزية كل ثروته إلى احترافه مهنة كتابة الخطب للمحاكم، ويقول ديونوسيوس: «إن أرسطو كان يقول عنه في هذه الفترة إن بائعي الكتب في عصره كان لديهم لفائف ولفائف من الخطب القضائية التي تحمل اسم إيسوكراتيس، مما يدل على ذيوع صيته ككاتب خطب للمحاكم» (٥٤).

مع مطلع القرن الرابع قبل الميلاد؛ اتخذ من مهنة التعليم حرفة له وأصبح لسنوات كثيرة معلمًا للبلاغة. وأنشأ في «خيوس» Chios مدرسة لتعليم الخطابة ثم انتقل إلى أثينا عندما ذاع صيته كمعلم محترف، وظل يعمل بهذه المهنة حتى الفترة الأخيرة من حياته، واهتم بالكتابة والتأليف، ولدينا ثلاثون نصًا منسوبًا إليه، ومعظم هذه النصوص خطب وقليل منها رسائل. نسب إليه القدامى ستين خطبة، بيد أن خمسة وعشرين أو ثمانية وعشرين فقط هي التي تقبل الآن على أنها من تأليفه فعلًا(٥٥). فبالإضافة إلى الخطب المكتوبة للمتخاصمين في المحاكم تنقسم أعماله الأخرى إلى ثلاث أقسام رئيسية: أولها الخطب النموذجية epidei ktike وهي تمرينات في الخطابة على المستوى الرفيع، كالخطبة العاشرة بعنوان «هيليني» والحادية عشر «بوزيريس». والقسم الثاني: هو عبارة عن مناقشات جدلية يعرض فيها آراءه في التعليم مفندًا آراء الآخرين مثل الخطبة الثالثة عشر، بعنوان «ضد السفسطائيين». والقسم الثالث: هو المقالات وهي مكتوبة في صورة رسائل مفتوحة بعضها في الأخلاق وأخرى في السياسة (٥٦).

أما عن أسلوب إيسوكراتيس الخطابي، فقد بدأ حياته بالكتابة بالأسلوب البسيط، الذي تمثل في أسلوب خطب المحاكم، وانتهى بالأسلوب المتقن المحكم، وقد تنوع هذا الأسلوب من فترة لأخرى، بالزيادة أو النقصان في استخدام الحيل البلاغية من ناحية، ومن ناحية أخرى تنوعت أعماله في خلال الفترة الواحدة، فلم يخصص فترة للخطب

التعليمية، وأخرى للسياسية وثالثة للخطب الحفلية، بل نوع في ذلك بين الحين والآخر، إذ أنه وضع نصب عينيه صياغة أسلوبًا خاليًا من الأخطاء يتميز بشيء من الرزانة والرصانة والاستقامة. فقد تجنب تكرار نفس المقاطع التي سبق أن استخدمها من قبل في كلمات سابقة، وتحاشى الجمع بين حروف تجعل النطق بها عسيرًا، ولا يسمح بوجود فجوة صوتية hiatus بين نهاية كلمة وبداية أخرى. حيث يرى إيسوكراتيس أن للنثر إيقاعه الموزون ونغمه المصقول على ألا يكون ذلك على حساب الترتيب الطبيعي لمفردات الجملة [٥٧].إيسوكراتيس إذن فنان واعي لديه شيء جاد يريد توصيله، فما هو إذن؟ وهل عرف كيف يحقق ذلك؟ لا شك أن الإجابة عن هذا التساؤل هو ما يؤدي بنا إلى نظريته في الخطابة، والتي تشتمل على جانبين: الأول منها يتمثل في نقده لطرق المعاصرين له في هذا الفن وخصوصًا السفسطائيين منهم (وهو ما يمثل الجانب السلبي أو الذاتي من نظريته) أما الجانب الثاني، فيشمل قواعد العمل الخطابي الذي ينبغي على الخطيب السير وفق له، والعمل بمقتضاه، ويمثل في الآن نفسه جوهر نظريته التعليمية في الخطابة (وهو الجانب الإيجابي أو الموضوعي من نظريته).

ب- الجانب الذاتي من نظرية إيسوكراتيس النقدية الخطابية:

لئن أردنا الوقوف على نقد إيسوكراتيس لطرق المعاصرين له في فن الخطابة، لا بد وأن نعلم أنه مع مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، قد انتشر في أثينا بصفة خاصة وبلاد الإغريق بصفة عامة، جماعة من السفسطائيين كانوا مختلفين تمامًا عن سابقيهم في القرن الخامس، إذ كان هدفهم الرئيسي هو جذب أكبر عدد من الطلاب دون تعليمهم التعليم الصحيح، وقد انقسم هؤلاء السفسطائيين إلى فئتين: الأولى منهم، كانوا كاتبي الخطب الخاصة بالحياة العامة، المتمثلة في الخطب السياسية التي كانت تلقى في الاجتماعات والاحتفالات العامة، والخطب الحفلية التي كانت تلقى أمام المجامع الكبيرة

في الأعياد الدينية والجنازات العامة، والخطب القضائية التي كانت تلقى للدفاع أو الهجوم على المتهمين في قاعات المحاكم(٥٨). وإلى هذه الفئة الأولى وجه إيسوكراتيس جل انتقاده إليهم. أما الفئة الثانية، والتي أطلق عليها إيسوكراتيس أصحاب الآراء المتناقضة أو السفسطائيون الجدليون، فلم يعير لهم أهمية كبيرة. وعلى كل حال سنعرض فيما يلي لأهم الانتقادات التي وجهها إيسوكراتيس للفئة الأولى.

*** نقده للمعاصرين له من خطباء المحاكم:**

كان من أشهر الخطباء المعاصرين لإيسوكراتيس في مثل هذا النوع من الخطب: انتيفون Antiphon وإيسايوس Isaeus وليسياس Lysias وديموستنيس Demosthenes وقد انحصر دورهم في كتابة الخطب ليلقيها المواطنون أنفسهم أمام منصة المحاكم للدفاع عن حقوقهم (٥٩). ويلاحظ في مثل هذا النوع من الخطب أن شخصية الخطيب قد اختفت تمامًا، وأن دوره كان مقتصرًا على تصوير حالة الشخص الذي طلب منه كتابة الخطبة، وهنا نرى قدرة الخطيب الفعلية على تصوير أدق المشاعر وأصدق العواطف وفهم الموضوع الذي يتناوله في خطبته، حيث تميزت بالبساطة في أسلوبها، ولعل تلك البساطة في أسلوب الخطبة راجع إلى أن من كانوا يحضرون جلسات المحاكم لم يكونوا من ذوي المهارة والدهاء، وإنما كانوا من بسطاء الناس من الصناع والمزارعين الذين يروقهم الكلام البسيط الذي يحرك سمعهم لأي شيء غير مألوف. وقد عبر عن ذلك «ديمتريوس» في كتابه عن «الأسلوب». قائلًا: «إن هذه الخطب كانت تتميز باستعمال التعبيرات الدارجة والمألوفة كي تحافظ على بساطتها، كما أنها لم تستعمل الكلمات المركبة dipla ononiata ولا المستحدثة ولا أي تعبيرات أخرى تعبر عن الفخامة في الأسلوب»(٦٠). لكن على الرغم من أهمية هذه الطائفة من صانعي الخطب القضائية في المجتمع الإغريقي، إلا أنها لاقت هجومًا شديدًا ونقدًا لاذعًا من قبل

إيسوكراتيس، حيث أوصاهم بترك هذه المهنة لأنها لا تعالج الموضوعات العظيمة التي تشغل اهتمام العالم الإغريقي، بل تعالج المشكلات الشخصية البسيطة المحدودة الأفق، كما نصحهم بمعالجة مجالات أخرى أكثر أهمية وسموًا، لأن هذا النوع من الخطب يقلل من مرتبة الخطيب ويجعله في درجة أقل من الفيلسوف [٦١].

*** نقده للمعاصرين له من خطباء المحافل:**

اعتنت هذه الخطب التي كانت تلقى في التجمعات الهللينية بالأسلوب والناحية الشكلية، فأسلوبها كان أكثر خيالًا وتزيينًا والأفكار التي تحويها أكثر فخامة وابتكارًا، وقد استخدمت فيها التشبيهات الخطابية بكثرة، حيث أعجب الناس بهذا النوع من النثر لما يجلب لهم من لذة في السمع، وقد اعتقدوا أن من يستطيع تعلم هذا الفن هم الحكماء فقط[٦٢]. ومن أبرز المتخصصين في هذا النوع من الخطب كان «إلكيداموس» تلميذ «جورجياس»، حيث نشر خطبًا نموذجية متعددة كانت السمة الغالبة فيها قوة الارتجال والتكلف، نجد ذلك واضحًا في خطبته التي عرفت باسم «السفسطائيين» وفيها يهاجم الخطباء غير القادرين على الحديث في أي لحظة حرجة ما لم يعدوا سلفًا ما يتحدثون به.

ومن بين الخطب التي حُفظت لدينا لالكيداموس، خطبة بعنوان «مدح الموت» وأخرى بعنوان «مدح نياس» وثالثة موجهة لخطبة إيسوكراتيس «ارخيداموس». وقد علق عليها أرسطو بقوله «إن لكيداموس استعمل مرادفات الصفات الشخصية بصورة فجة، لا على أنها زخارف للموضوع بل على أنها لبَّ له، الأمر الذي أدى إلى التقليل من قيمة الخطب التي ألفها»[٦٣]. هذا ويعد «بولوكراتيس» Polucrates. و«لوكوفرون» Lucophron من بين بلغاء خطباء المحافل بعد إلكيداموس؛ فكان الأول معاصرًا لإيسوكراتيس وقد كتب خطبًا يمدح فيها الملك المصري «بوذيريس» Bussris مما دفع بإيسوكراتيس أن يكتب خطبته التي تحمل نفس العنوان يوضح له فيها كيف يمكن كتابة مثل هذا النوع

من الخطب[٦٤]. أما «لوكوفرون» فكان من المغرمين بجورجياس، وحاول تقليده، وقد اقتبس منه أرسطو مرات كثيرة، وشن هجومًا لاذعًا عليه دفع بكيفسيدوروس Kephisidoros أفضل خطباء مدرسة إيسوكراتيس إلى أن يدافع عن سيده ضد مثل هذه الهجمات الأرسطية[٦٥]. ولم تخل هذه الطائفة من صانعي الخطب الحفلية أيضًا من هجوم إيسوكراتيس، فقد اتهمها بنقص الذوق وقلة الحس الجمالي، وبأن خطبها ليست أكثر من مجموعة من الخدع الشكلية التي يحفظها التلميذ ويستطيع استخدامها في الوقت المناسب، فهي لا توسع ثقافته ولا خبرته، لكنها تعلمه فقط عمل الخطب كنماذج معنوية تعلم عن طريق الحفظ[٦٦].

*** نقده للمعاصرين له من معلمي البلاغة العملية (السياسة):**

يؤكد إيسوكراتيس نقده لهذه الطائفة من معلمي البلاغة العملية (السياسة) بقوله: «يأتي بعد ذلك معلمو النقاش السياسي، أعني قضاة أو مستشارين، فهم لا يهتمون بالحق إطلاقًا، في حين أن الجدليين يهتمون بالبحث عنه: إنهم يعتبرون مهمتهم جذب أكبر عدد مستطاع من التلاميذ بما يتقاضونه منهم من أجور زهيدة، وبما يعدونهم به من وعود خلابة. حقًا إنهم في منتهى الغباوة ويظنون غيرهم أغبياء، حتى إنه بالرغم من كون الخطب التي يكتبونها أسوأ مما يستطيع ارتجاله غير المحترفين، فإنهم يتعهدون بأن يجعلوا من تلاميذهم خطباء يتساوون مع أية شخصية بارزة، إنهم يدعون أن في مقدورهم تعليم الخطابة بالسهولة التي يعلمون بها الحروف الأبجدية، وأن الخطابة موضوع ذو قواعد محددة غير قابلة للتغيير، في حين أن ظروف المتكلم ليست واحدة في أي فرصتين»[٦٧]. ويستطرد إيسوكراتيس نقده قائلًا: «إن نجاح الخطبة يتوقف على ملاءمتها للموضوع؛ وللظروف؛ وللخطيب؛ ويجب أن تكون إلى حد ما طبيعية، ويمكن للتعليم أن يكسبنا مهارة فنية، ولكنه لا يستطيع أن يوجد ملكة الخطابة التي يلزم بأن تكون متأصلة

في نفس الخطيب الجيد بمحض الطبيعة والسليقة»[٦٨]. تلك كانت أهم الانتقادات التي وجهها إيسوكراتيس لخطباء الحياة العامة بأنواعها الثلاث، ولا شك أن هذه الانتقادات هي ما تمثل الباعث الرئيسي لإبراز الجانب الإيجابي أو الموضوعي من تنظير إيسوكراتيس الخطابي.

ج- الجانب الموضوعي من نظرية إيسوكراتيس الخطابية:

يتمثل الجانب الموضوعي من نظرية "إيسوكراتيس" الخطابية في النقاط التالية:

*** منهج إيسوكراتيس التعليمي الفلسفي:**

احترف إيسوكراتيس مهنة تعليم الخطابة، كما أشارنا سابقًا؛ وكان له فيها نظرية تعليمية، حيث يذكر في خطبته «البانيجوريكوس» Panegyricus. أن الموضوعات التي تتناولها الخطابة قد تتشابه مع تلك الموضوعات التي تتناولها فنون أخرى، ولكن بطريقة مختلفة، فهي في مقدورها أن تصور الشيء العظيم هينًا أو تخلع العظمة على الشيء الهين، وأن تروى الأحداث الماضية في قالب جديد أو تصيغ أحداثًا حاضرة في ثوب قديم[٦٩]. ويحدد لنا فن الخطابة عنده بأنه عبارة عن خطبة تحتوي على كل فنون النثر مكتوبة وملقاة، وأنه يتعامل معها كنوع من الأدب، وسمى تعليمه «فلسفة»، وذلك حين قال: «لقد سمعتم الآن الحقيقة كلها عن وظيفتي أو فلسفتي أو منهجي أو كما يحلو لكم أن تسموها»[٧٠]. من هذا المنطلق فإن الخطابة عند إيسوكراتيس «فلسفة» المقصود بها الدراسة الثقافية التي تبحث عن الأفكار الرفيعة في أسلوب مناسب، وهي فن الكتابة والحديث في الموضوعات السياسية التي تستخدم كتدريب عملي يستطيع به المواطنون تأدية واجباتهم تجاه الدولة، فإيسوكراتيس إذن يرى في فنه الخطابي اتحادًا بين الفلسفة والخطابة المبكرة[٧١] وليس ذلك فحسب بل أكد أن فلسفته ليست التأمل المجرد للبحث عن الحقيقة التامة للأشياء، فهو يعتقد أنه من غير اللائق إطلاق مصطلح فلسفة على تعليم لا يبدو مساعدًا لنا في حديثنا أو أعمالنا في الوقت الحاضر، ولكن يمكن تسميته

تدريب للعقل وإعداد للفلسفة(٧٢). وهنا نلاحظ أن إيسوكراتيس قد استعمل كلمة فلسفة لتعليم «فن الخطابة» وهو هنا يختلف عن سقراط، والذي كان يعني مفهوم الفلسفة عنده محبة المحكمة. وأيضًا يختلف عن مفهوم تلميذه أفلاطون لهذه الكلمة من بعده، حيث كانت تعني عنده التفكير المجرد والسعي لإدراك المعرفة التامة للأشياء، والذي ظل سائدًا لقرون طويلة. وعلى هذا الأساس لم يكن إيسوكراتيس يفضل التفكير المجرد والمعرفة التامة للأشياء التي نادى بهما أفلاطون، بل كان يفضل عليهما الرأي السليم، فالحكمة Sophia والفلسفة Philosophia تعني في مفهومه شيئًا متصلًا بشئون الحياة العامة أكثر من كونها تفكيرًا مجردًا، وهو يعرف الحكماء بقوله: «إن الحكماء من لهم القدرة على أن يصلوا بأدائهم إلى الأفضل بوجه عام، أما الفلاسفة فهم يشغلون أنفسهم في تلك المجالات التي يحصلون من خلالها على مثل هذه الفطنة بسرعة هائلة»(٧٣). ومن هنا يتحدد منهج إيسوكراتيس التعليمي، حيث يرى أن طبيعة الإنسان التي تتألف من روح وجسد تستلزم فنونًا لتغذيتها، ففنون الرياضة للجسد والفلسفة للروح. ويدلل على ذلك بمدربي الرياضة الذين يتعهدون تلاميذهم بالتدريبات الخاصة للمباريات الجسمانية، في حين أن معلمي الفلسفة يلقنونهم كل أنماط فن الخطابة التي يعبر بها العقل عن نفسه، وأن التدريب الخطابي يتم باستخدام الرأي السليم وليس المعرفة(٧٤).

*** شروط العملية التعليمية الصحيحة للخطابة:**

لما كان إيسوكراتيس محرومًا من إظهار مواهبه أمام الجمهور بسبب عجزه الطبيعي، ولما كان مضطرًا إلى كسب رزقه، حيث أن الحرب البلوبونيزية قد استنفذت كل ثروته، فقد احترف مهنة كان يصلح لها كل الصلاحية، ألا وهي مهنة التعليم، فكان لعدة سنوات، معلمًا للبلاغة، كجورجياس سفسطائيًا، لكنه على الرغم من ذلك فإنه يختلف عن معظم سفسطائيو القرن الرابع قبل الميلاد، في أن أول عمل له عن التعليم، هو

الخطبة أو المقالة (ضد السفسطائيين) (الخطبة ١٣). حيث يقول إيسوكراتيس في مقدمة خطبته القاسية عن السفسطائيين: «لو اقتنع جميع معلمينا المحترفين بقولهم الصدق، ولم يعدوا بأكثر مما ينوون القيام به، لما كانت لهم سمعة سيئة بين العوام، فالواقع ان سفاهتهم الوقحة قد شجعت الرأي القائل بإن حياة الكسل والتغافل خير من حياة موقوفة على الفلسفة»(٧٥).لذلك فإن الفلسفة كما هي عند إيسوكراتيس تعني (تعليم فن الخطابة) وأنها لا تستطيع أن تخلق بنفسها خطيبًا بارعًا قادرًا على أن يتحدث ما لم يتوفر فيه ثلاثة أمور:

الأولى: هي الفطرة أو الاستعداد الطبيعي.

الثانية: هي الدراسة حيث يتم إخضاع التلميذ للتعليم والتدريب.

أما الثالثة: فهي الممارسة العملية.

هذا وقد شرح إيسوكراتيس الأهمية الخالصة للتعليم، فأكد أن الموهبة الطبيعية هي العامل الرئيسي، وأن الهبات العظيمة التي يخلق بها الإنسان أكثر قدرة على إنجاز الأعمال من تلك المدربة بدون موهبة طبيعية(٧٦). ومن هنا فإن العملية التعليمية الصحيحة عند إيسوكراتيس، ترتكز على دور المعلم والتلميذ الذي يكمل كلا منهما الآخر، ولا تنتهي عند حد تعليم المعلم المعرفة النابعة من خبراته لتلاميذه، ولكنها تنتقل إلى المرحلة الثالثة، وهي تمرين التلاميذ وإخضاعهم للتدريبات العملية وحثهم على العمل الجاد وتطوير ملكاتهم من خلال مجهوداتهم الخاصة، وتمرينهم على أن يجمعوا بطريقة عملية الأمور التي تعلموها كي يستوعبوها بشكل أكثر ثباتًا لكي يصبحوا أكثر خبرة وتمرينًا على استعمال فنهم وتطبيقه(٧٧). وعلى هذا الأساس فقد اهتم إيسوكراتيس بإرساء المبادئ الهامة لبلوغ الإتقان في فن الخطابة من خلال حصره في ثلاث عوامل: **(العامل الأول)** وهو ما ينبغي على الخطيب الناجح فعله من خلال الشجاعة العملية المعتمدة

على الدراسة. **(والعامل الثاني)** يتمثل في مدى ملائمة الخطبة للمناسبة وللأسلوب. **(والعامل الثالث)** يتمثل في الوسائل الفنية لمعالجة الموضوعات من اختيار عناصر الموضوع وربطها ببعضها وتنميتها بالأفكار والجُمل ذات الإيقاع الموسيقي(٧٨). وبناءً على ما تقدم يمكن القول بإن إيسوكراتيس قد أولى أهمية كبيرة للخطابة، التي كانت قبله ساذجة، وتختار البداية المخطئة، وينقصها الهدف العظيم الذي يجب أن تعد من أجله، فالتعديلات التي كان يدخلها على هذا الفن من تحسين اللغة والأسلوب لم تكن الهدف الأساسي منه، بل إنه أراد أن يجعل منه أداة تستخدم في كل بيئة فيها الفكر والحجة والإقناع يشتركون سويًا، وتعليمًا عامًا، أطلق عليه فلسفة، كما سبق وأشرنا. لذلك فضل إيسوكراتيس أن يسمي نفسه فيلسوفًا أكثر من كونه سفسطائيًا أو خطيبًا، وأطلق على مدرسته «مدرسة الفلسفة». وفضَّل أن يتحدث عن أصول فن الحديث بصفة عامة، وفن الحديث عنده هو فلسفة الحديث.

*** اللوغوس وفصل الخطاب:**

الكلمة التي استخدمها إيسوكراتيس بمعنى الحديث هي «اللوغوس»، وهي كلمة ذات معانٍ عميقة، وقد اشتقت من الفعل Legein بمعنى يختار، يجمع، يضع في خطبة، يتحدث. ويوضح «روبرتس» أن اللوغوس هو مادة الحديث والنطق والاختيار والتجميع، ومنظمة الفكر، كما أنها تستخدم في كثير من المعاني اللغوية، مثل القصة والأسطورة والقول والمأثور والمناقشة(٧٩). كما يذكر «نورلن» أنها تعني كلا من الفكر الداخلي والخارجي، وهي ليست شكل التعبير فحسب؛ لكنها السبب والشعور والخيال أيضًا، فبواسطتها نقنع الآخرين ونقنع أنفسنا، ونباشر شئوننا العامة، فهي الميزة البشرية التي تضعنا فوق الحيوانية، وتمكننا من أن نعيش حياة متحضرة، ففن الحديث متسع ككل حياة الإنسان(٨٠). لهذا لم تكن الكلمة «لوغوس» تعني بالنسبة لايسوكراتيس المعاني التي

تتضمنها خطبته فحسب، بل تعني أيضًا شكل التعبير البلاغي الذي يجب أن يستخدم في عرض هذه المعاني، وكانت فلسفته التي تعتبر ملكة تميز البشر عن الحيوانات، ترتكز بصفة رئيسية على اللوغوس؛ هبة الحديث، كما أنها هي حب اللوغوس Philologos نفسه الذي يرتكز بصفة نهائية على معرفة الأهميات العامة. ويصبح هذا المظهر اللوغوس له أهميته –من وجهة نظر إيسوكراتيس– في الاهتمام الحقيقي بالحياة الاجتماعية(٨١). وإن كان مثل جورجياس يريد نثرًا أدبيًا، إلا أنه أدار ظهره لتفخيم الكلام واصطنع نثرًا متميزًا تمامًا عن الشعر، ومعتدلًا، وواضحًا، ودقيقًا، وخاليًا من نادر الألفاظ، ومستحدث الكلمات، ومن الاستعارات البراقة، ومن الإيقاعات المطبوعة، لكن الجميل بارع الجمال، والمتناسق عميق التناسق، ودون أن يكون شعريًا، يدين بإيقاعه إلى توازن النوبة وإلى القفلة التي تنهيه، إنه تناغمي، يتجنب ويتفادى شنيع تكرارات المقاطع اللفظية وتعاقب المصوتات(٨٢)وخصوصًا، إنه يخلق الخطابة، مؤكدًا صراحة، أنها ليست مقبولة إلا في خدمة قضية شريفة نبيلة، تجمع بلاد الإغريق تحت لوائها بصفة عامة، وهدفًا تحقق به وحدتهم وجمع شملهم، بالإضافة إلى ذلك أراد إيسوكراتيس لهذا الفن أن يكون أداة العلم السياسي في الدولة، الذي يعد المواطنين نحو ممارستهم الحياة العملية ويمدهم بالخبرة السياسية. لهذا كرَّس نفسه نحو هدف تعليمي سام، وهو تلقين هذا النوع من الفنون، وأعطى معالم هامة لكيفية دراسة أهم الطرق السليمة لبلوغه، دون أن يترك شيئًا للصدفة، ذلك أن من يتعود على تنظيم خطابه، إنما يتعود أيضًا على تنظيم حياته.

(٢) النظرية النقدية المثالية للخطابة عند أفلاطون

تتلخص معالم النظرية النقدية المثالية للخطابة عند أفلاطون، في النقاط التالية والتي نبدأها بمقدمات ضرورية كي ننتهي بنتيجة حتمية، بناءً عليها تمثل جماع نظريته الخطابية.

أ- بين إيسوكراتيس وأفلاطون:

إذا كان إيسوكراتيس يجلّ الخطابة، التي هي في نظره كل الفلسفة «كما عرضنا سابقًا»، فإن أفلاطون المعاصر له ينساق باسم الفلسفة وراء نقد أساسي ضد الخطابة، خاصة في المحاورة التي خصصها لها، وهي محاورة «جورجياس»، أحد النصوص الأقوى في تاريخ الفلسفة. وقبل أن نعرض لذلك، ينبغي أن نشير إلى أن الفترة التي أنشأ فيها إيسوكراتيس مدرسته الخطابية، كانت هناك مدارس سفسطائية أخرى تعلم هذا الفن كما كانت تعلم الفلسفة، وكان أفلاطون من أولئك المدرسين، ولكنه اختلف عنهم في أنه كان يعلم الفلسفة لتلاميذه بدون مقابل في أكاديميته، فكان الطلاب يتعلمون فيها المنطق والرياضيات والمواد المختلفة والهامة في تكوين شخصيتهم، مثل التربية البدنية والموسيقية والنواحي الأدبية والدينية لما لها من أهمية في تهذيب النفس، وتشكيل الوعي الناضج لشؤون الدولة، وكلما كان تشكيل الشخصية الإنسانية سليمًا كلما كانت نهاية هذا التشكيل إنسانًا مثقفًا. وهنا يتفق أفلاطون مع إيسوكراتيس في أن الثقافة الرفيعة لا يمكن بلوغها في المراحل القليلة للتدريب الأكاديمي، وإنما تنمو في شهور وسنوات طويلة [٨٣] حيث يتم من خلالها معرفة الحقيقة التي ينبثق عنها «الخير». وقد كانت مهمة أفلاطون الأولى هي تحديد الطبيعة الحقيقية لهذا الخير، والنفس التي تكون خيرة بمعرفتها الخير، ولقد أعانه على فعل ذلك اتصاله «بالفيثاغوريين» ومعرفته بمذهبهم وعن منهج التفكير الذي يجب استخدامه بغية الوصول إلى الحقيقة، وكيف أن العقل يمكنه أن يرتقي عبر مراتب «المثل» حتى يصل إلى أعلى المثل وأكثرها كلية، ألا وهو «مثال الخير» الذي هو «شمس العالم العقلي» وسبب جميع المثل الأخرى ومعرفتنا بها، لأنه أول المبادئ وآخر تفسير للواقع [٨٤]. وبوصف الخير سببًا للمثل ولمعرفتنا بها، فإنه يتعالى على التمييز الكبير الذي يقيمه أفلاطون في العالم الروحي بين «المثل» و«النفس»، التي هي موضوع

المعرفة والعارف، ولذلك فالخير وإن كان أعلى المثل؛ فإنه أكثر من مجرد مثال كسائر المثل التي يتضمنها. فهو الواقع المتعالي المفرد للكمال المطلق الذي هو السبب النهائي والتفسير الأخير للكون(٨٥).

ب- نقد أفلاطون للخطابة الصقلية والأثينية:

بناءً على ما تقدم، فقد هاجم أفلاطون الخطابة الصقلية والأثينية، فوجَّه اللوم إلى كل من تيسياس وجورجياس على طرقهم التجريبية ودقتهم المدرسية واهتمامهم بصفة عامة بالضروريات الأقل من الفن، وأنه باستخدام الحيل الخطابية الخاصة بخطب المحاكم، يستطيعون أن يجعلوا الأمور الهينة تبدو عظيمة، والأمور العظيمة تبدو هينة وأن يقدموا الأشياء القديمة في قالب جديد، والأشياء الجديدة في قالب قديم، فالخطابة النبيلة تهدف إلى تحسين أرواح المواطنين وليس بالتملق ولكن بتعاملها مع المعرفة والحقيقة وليس الرأي والامتداد. ومن هنا أيضًا اتهم أفلاطون الخطابة بأنها تتصف باللامبالاة الأخلاقية وتركيزها على الشكل الصرف الذي يحفظها من كونها ليست أكثر من أداة في أيدي السياسيين الجشعين المجردين من الأخلاق، فهي مجرد أداة للمتطلعين للسلطة ولإرضاء كل نزوة لهؤلاء السياسيين (٨٦). لذلك تصدى أفلاطون لمهاجمة هذه الأفكار وقرر أن الخطابة ليست كافية في إدارة شؤون السياسة والسياسيين، لأن الخطيب والطاغية معيارهم الوحيد هو «اللذة»، واللذة ليست تشير أبدًا إلى الخير الحقيقي، فهي ليست تجلب إلا إرضاءً ظاهريًا وسريع الزوال. وهنا نجد أن أفلاطون بداية من نص جورجياس (D454 إلى G456) ينظر إلى الخطابة على أنها زائفة، كاذبة، مصطنعة تستخدم التلميحات الخادعة والعاطفية للحشد الجاهل من الناس بدلًا من البراهين الجدلية للمثقفين. وتجهل طبيعة النفس البشرية، وأداة غير أخلاقية للإقناع بدلًا من كونها أداة للعداء، كما أنها ليست فنًا على الإطلاق. ولكنها الخبرة في إنتاج نوع من السرور والرضا،

وذات نوع حقير لأنها تهدف إلى اللذة دون الاعتقاد والنظر إلى الأحسن، فلا يمكن تسميتها فنًا، لأنها غير قادرة على أن تعطي سببًا لطبيعة استعمالها، ويعتقد أن الشيء غير المعقول لا يصبح فنًا(٨٧).

ج- إعادة النظر في إمكانية الخطابة وقيامها على أسس فلسفية:

ينبغي أن نضع في الاعتبار أن رفض أفلاطون لفن الخطابة، وكراهيته للخطباء لم يكن سوى في المراحل الأولى التي كان متأثرًا فيها بأستاذه سقراط، ولم يكن هذا الرفض قاصرًا على الخطابة فحسب، بل رفض كل شيء في الحياة تقريبًا كما كان يراها في أثينا. كرفضه للديمقراطية والشعر والفن والتعليم، لكن إذا كان من المسلم به أن فلسفة أفلاطون قد مرت بأطوار مختلفة، فقد ترتب على ذلك التطور بالضرورة، ظهور آراء أخرى جديدة في الفن نابعة عن الروح الأفلاطونية. فبعد أن كان أفلاطون يذم فن الخطابة ويعده نوعًا من الخداع والتمويه، أعاد النظر إلى إمكانية الإبقاء عليه وإصلاحه. وقد أخذ أفلاطون يحدد الشروط الكفيلة بقيام نوع من الخطابة الفلسفية التي لا تقنع بإيهام الجمهور تبعًا لأهواء الخطباء، بل تلتزم بالتعبير عن الحقيقة والتوجيه إلى الخير. وهذا النموذج الجديد لفن الخطابة هو الذي تقدمه محاورة «فايدروس». وهي عبارة عن برنامج للتدريب الفلسفي لتمرين عقل الخطيب، كما أنها تعد تفسيرًا جديدًا للنموذج المثالي من الفن الأفلاطوني، وهو الفن المعبر عن الوحدة المثالية «للخير والحق والجمال». ذلك الثالوث الذي يكشف عنه الفنان في هوسه وإلهامه كما يكشف عنه الفيلسوف في حدسه لعالم المثل وفي تجربة العشق القريبة من جذب الشعراء وإلهامهم. ولقد التقت محاورة «المأدبة» مع محاورة «فايدروس» في الكشف عن الموقف الأفلاطوني الصميم. ويكفي أن نذكر هنا ما جاء في محاورة المأدبة من وصف للجمال بأنه يحتل أعلى مكانة بين «المثل» ومن أنه أكثر المثل بريقًا وقابلية للرؤية(٨٨). لذلك فإن

*** الخطابة الحقة هي فن قيادة النفوس:**

حيث يرتبط مذهب أفلاطون في «النفس» ارتباطًا لا فكاك منه بمذهبه في «المُثل»، التي هي الموضوعات الكلية غير المتغيرة للمعرفة الحقيقية، إذ لا بد من وجود مُثل تعرفها النفس إذا أرادت أن تنال الخير المناسب، ولا بد أن تتميز النفس بأن تكون من طراز ما لتعرف المُثل. والنفس، عند أفلاطون كما عند سقراط، هي الشخصية العقلية والأخلاقية، وأهم جزء في الإنسان، وهي عند أفلاطون ليست فقط الجزء الأهم، بل هي أكثر واقعية من الجسد. لذا حدد أفلاطون الطريقة التي يمكن أن ترقى بها الخطابة إلى مستوى الفن العظيم بدراستها طبيعة النفس الإنسانية، وأن تعرف ما نوع الأقوال التي تؤثر فيها التأثير الأحسن، فالخطابة عنده يجب أن تكون فن قيادة النفوس وتوجيهها بالأقوال Paychagogia، فهي الإقناع بالعدالة ليس فقط إقناع الناس بل إقناع الذات، وليست غايتها خداع العامة بل وسيلة النفس لمحاسبة نفسها، لأن الخطابة الحقة هي التي تفيد في انتشار العدالة في المحاكم، كما تنشر الفضيلة في الحياة اليومية وتكون أداة كعقاب المذنب ولتحقق النظام [٨٩].

*** الاستعانة بالجدل شرط بلوغ فن الخطابة:**

وبناءًا على ما تقدم يرى أفلاطون أنه ينبغي على الخطيب أن يستعين بالفلسفة إذا أراد بلوغ مستوى الجودة والإتقان. فالحب الفلسفي يدفعه إلى معرفة عالم المثل الذي تعشقه نفسه وتحن إليه. ولكن الحب لا يكفي، إذ ينبغي له الاستعانة بمنهج ينظم به فكره، وليس هذا المنهج إلا بالجدل، أي فن مناقشة الأفكار. فالخطابة هي فن القول الذي لا بد له من الاستعانة بالجدل، فن التفكير، ويوضح أفلاطون في «فايدروس» ذلك المنهج الذي سبق أن ذكره في «فيدون» (101B) و«الجمهورية» (الكتاب السادس 511B) ويذكر هنا وبطريقة حاسمة استقلال المثل في عالم المعقولات خاص بها بعد أن ظهر

تردده في هذا الشأن في محاورة (بأرمنيدس). كذلك يعني على وجه الخصوص بطريقة القسمة المنطقية، بعد أن كان اهتمامه في المحاورات السابقة يدور حول الارتفاع من المحسوس إلى المعقول أي بطريقة الجدل الصاعد، ويسير الجدل في طريقين: يتلخص الأول في عملية جمع الكثرة المشتتة في فكرة واحدة تجمعها صورة أو مثال واحد. أما الثاني فهو على العكس من ذلك تجزئة الفكرة الواحدة إلى الأنواع التي تدخل فيها. ويجب ألا تسير هذه بالمصادفة بل وفق الأجزاء التي ينقسم إليها الموضوع بطبيعته[90]. ويتطلب ذلك نوعًا من الكشف والتذكر والتجربة الصوفية التي يتصل بها الفيلسوف بالعالم الذي يفوق الوصف، وإدراك هذا العالم يتطلب مرانًا ومشقة وجهدًا عظيمًا، مصدرها محاولة التغلب على دوافع الحس وتأثير المادة وتذكر عالم المثل الذي كانت تقيم فيه النفس قبل سقوطها على الأرض، وعندما يتم لها ذلك يحدث لها تغير وتبدل، وتنتابها رجفة مصدرها المحبوب الذي يذكرها بالجمال المطلق الذي تصبو إليه، وعند التقائها بالمحبوب الذي يشاركها هذا الحب تقدسه تقديس الإله[91]. ولا يقف أفلاطون عند هذا، بل إنه ذهب إلى أن الخطابة بهذا المعنى الفلسفي ليست حديثًا يسعد العامة، ولكنها حديث وعمل يسعد الإله، فالإله وليس الإنسان –هو مقياس كل شيء– وهنا يقدم أفلاطون فكرة جديدة للبلاغة التي تكون معيارها الخير الداخلي الكامن في النفس، لأنه كان مقتنعًا أن الإنسان لا يصل إلى حيازة الخير الحق إلا بفحص صارم ودقيق لجميع الآراء السائدة، لذلك لم يقتصر على مناقشة السفسطائيين واتباعهم، بل عنى بتكوين التلاميذ، ولم يكتفي أن يقدم لهم تعليمًا نظريًا، بل عرض عليهم مثلًا أعلى عمليًا جديدًا، ونوعًا جديدًا من الحياة. حيث ابتعد بهم عن الجمعيات والمحاكم والنفوذ والسلطة، ورضى لهم كيف يعرفون أنفسهم، وهو الرضى الأعظم؛ لأنهم يبحثون عن الحق بكل ما أوتوه من قوة، من أجل الحياة الراهنة والحياة الأخرى [92]. وهكذا تتضح لنا الغاية النهائية لفن الخطابة والخطيب الجيد عند أفلاطون. الخطيب الحقيقي الذي يفهم فنه ويجعل كلماته التي يخاطب بها

أرواح الناس تتصف بالعدالة والاعتدال، وأن يكون فنه الحقيقي ليس زخرفة الكلمات للتأثير على الأرواح، لأن الخطيب الفيلسوف لا يسعى إلى إرضاء الناس، ولا إلى مكاسب وغايات عملية، بل إن غاية الخطابة هي إدراك عالم المعقولات الذي بتأمله تصفو النفوس وتتطهر وتحقق القيم العليا الأخلاقية المثالية.

الخاتمة

تعقيب ومناقشة:

١. كان لتنظيرات مفكري اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، أثرها في تطور فن الخطابة، فمن تنظير حول الحيويات بنى على أسس فسيولوجية وجدناه عند ابنادوقليس، يجعل من الخليط الموجود في لسان الإنسان بنسبة مناسبة ليكون خطيبًا جيدًا (والذي فسره إيسوكراتيس على أنه الاستعداد أو الميل الطبيعي نحو وجود خطيب جيد) إلى إدخال العنصر السيكولوجي والاحتمالات eikos. كما وجدناه عند كوراكس وتيسياس في تنظيرهما الخطابي، الذي يركز على الطبيعة النفسية للسامعين، والخطب المناسبة لها وخصوصًا أمام المحاكم. إلى تنظير يستند على خلفية فلسفية ويهتم بالجانب الحجاجي في الخطابة ليجعل منها فن صناعة الإقناع، من خلال صياغة الأفكار بأساليب جمالية، شقت الطريق أمام كتاب النثر كما وجدناه عند جورجياس (والذي أشار إليه أرسطو في كتابه الخطابة) وهو في معرض حديثه عن قاعدة حجاجية متعلقة باستعمال السخرية ومواجهتها، حيث وجد جورجياس ضالته في «الطباق» الملائم جدًا للعبقرية الإغريقية التي أحبت دائمًا جعل الأفكار أكثر دقة بمواجهة بعضها ببعض. لنجد ذلك أوضح ما يكون في تنظير بروتاغوراس الخطابي، الذي وجه نحو إتقان المناقشة وتركيزها على جانب الاستدلال المنطقي، والمواجهة بين الأفكار وتقليب جوانبها والبحث فيما يمكن من الإقناع بها، وهكذا كانت خطابته

تنزع نحو «الجدل» فبتوجيه تعليمه نحو تقنيه قلب الحجج والنظر في الخطاب والخطاب المضاد، كان يفي بوعده بتكوين رجل السياسة –فعلى هذا الأخير– قبل اتخاذ أي قرار، أن يرى مقدار الربح والخسارة فيه، جوانبه الإيجابية والسلبية، نتائجه وعواقبه، هذا إضافة إلى القدرة على الإقناع وإتقان الخطابة. ولا شك أن محصلة هذه التنظيرات الخطابية قد آتت أكلها مع نهاية القرن الخامس قبل الميلاد، حيث فتحت الطريق أمام التفكير في اللغة باعتبارها فرعًا من فروع المعرفة، وأداة من أدوات الحجاج، لا يمكن أن تتطور الخطابة إلا بتطويرها. وقد تبع بروتاجوراس في ذلك بقية السفسطائيين الذين أصبحت اللغة تشكل جزءً من برنامجهم التعليمي. ولا ننسى كذلك أنطيفون الرامنوسي، أقدم معلمي الخطابة ومحترفي كتابة الخطب الأثينيين، والذي يأتي على رأس قائمة أفضل الخطباء العشرة المكرسة أسماءهم في التراث الغربي، حيث حاول تبسيط طرق تعليم الخطابة، وجعلها عملًا شبه ميكانيكي، يجعل القدرة على الترافع أمام المحاكم في متناول كل من تسول له نفسه من الراغبين في اكتساب هذه القدرة، وذلك برد ترتيب الخطبة القضائية إلى عدد ثابت من الأجزاء، وتزويد التلاميذ بمجموعة احتياطية من القواعد والوصفات والأفكار والصياغات خاصة بكل واحد من تلك الأجزاء، تصبح معها مهمة الإيجاد بالنسبة للتلميذ مقلصة إلى حدها الأدنى. فلصياغة الاستهلال أو الاختتام يجد التلميذ في مصنف أستاذه حول الخطابة جردًا كاملًا من الأفكار المناسبة لهذين الجزئين، إضافة إلى أنه ليس أسهل بالنسبة له من العثور في مصنف الاستهلالات والاختتامات على صياغات جاهزة تلائم القضية التي يشتغل عليها. وبذلك تكون بداية المرافعة ونهايتها في متناوله، وبالنسبة للعرض الذي هو الأقل استلزامًا للتحضير، فبقليل من الجهد يمكن للمرافع أن ينجزه على أحسن وجه.

٢. يبقى، أخيرًا، أن الخطابة باعتبارها صناعة واعية بذاتها لم تنشأ لا على يد كوراكس وتيسياس ولا حتى على يد السفسطائيين، بل كان مبدعوها هم الفلاسفة، وبالضبط إيسوكراتيس وأفلاطون مطلع القرن الرابع قبل الميلاد، عندما حددا لها الهدف والغاية السامية. ذلك الهدف الذي وجدناه حاضرًا في نظرية إيسوكراتيس الخطابية والتي سعى من خلالها إلى توحيد أمة الإغريق (ويأبى القدر إلا أن يشاهد ذلك بعيني رأسه قبل أن يموت عندما قام فيليب المقدوني أبو الإسكندر الأكبر بأول خطوة نحو تلك الوحدة) وتلك الغاية التي وجدناها واضحة بمعناها الفلسفي عند أفلاطون، حيث أن الخطابة الحقة لديه هي التي تعين على إظهار الحقيقة وليس حديثًا لإسعاد العامة من الناس، بل حديثًا وعملًا يسعد الإله –الذي يصعد إليه الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه– وهنا نجد أنفسنا لأول مرة أمام معيار جديد للخطابة، يكمن في الخير الداخلي الكامن في النفس، والذي يمكن أن يستخلص منه منطق لأحكام القيمة، كان غيابه شديد الوطأة إلى حد كبير. وهنا أيضًا تتكشف دلالة اللوغوس الذي يشبه التحليل المجهري للنفس عند أفلاطون، والذي تجلى لنا بوضعه خطتين للخطابة: خطة جدلية، وأخرى نفسية –والخطة الجدلية جعلها تتكون من أمرين هامين هما (التركيب والتحليل) والتركيب هو القدرة على تجميع الجزئيات المتناثرة في فكرة واحدة حتى لحظة الكلام– أما التحليل فهو على العكس يرد الفكرة إلى جزيئات التي تتكون منها مع الاهتمام بالمنطقية في ردها وعدم التضارب بين الجزيئات.

أما الخطة النفسية، فرأى أفلاطون أنه ما دام الجدل مبنيًا على التركيب والتحليل النفسيين، فالخطابة تجد نفسها في هذه الناحية أيضًا، فيجب على الخطيب أن يركز على الطبيعة النفسية للسامعين قبل إلقاء خطبته، وأن يبحث في نوعية النفس التي يخاطبها وأهم أنواع الخطب المناسبة، ونوع الخطبة الموجهة إلى كل نفس، ثم يدرك هل هناك مشكلة بين عدد الرجال وعدد النفوس أو بين طبقات الرجال وبين الخطب التي تخاطب كل طبقة، ولم يهتم أفلاطون بالناحية النفسية للمستمعين فحسب، بل وجَّه اهتمامه أيضًا إلى الناحية النفسية للخطيب، وإلى متى يمكنه أن يتكلم ومتى يسكت، ومتى يكون دقيقًا مركزًا، ومتى يكون ثابتًا كابتًا لانفعاله، ومتى يندفع إذا اندفع به الانفعال، لذلك فلا غرابة

بعد كل هذا أن نجده يهاجم خطابة التملق واعتبرها خطابة مشينة، ومدح ذلك النوع النبيل الذي يهدف إلى تعليم وتحسين نفوس المواطنين، وقد كان هذا النقد من جانب أفلاطون بصفة خاصة –نقده للخطابة السيئة التي تزيف الحقائق– بداية للنظريات النقدية المختلفة لهذا الفن الذي شاهدها القرن الرابع قبل الميلاد.

٣. إذا كنا قد عرضنا للتنظيرات الخطابية في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي وجدناها متناثرة هنا وهناك عند ذلك المفكر أو ذاك من مفكري اليونان، وإذا كنا قد عرضنا للنظريات النقدية للخطابة مطلع القرن الرابع قبل الميلاد ممثلة عند إيسوكراتيس وأفلاطون، إلا أننا نلاحظ أن هذه التنظيرات قد عالجت صورة خاصة دون أخرى من صور الخطابة، وأنها لم ترقى إلى نظرية علمية متكاملة في فن الخطابة. فهل نجد مثل هذه النظرية العلمية المتكاملة للخطابة عند مفكري وفلاسفة اليونان في عصرهم الذهبي، وأعني به القرن الرابع قبل الميلاد؟ ثم ماذا عن «أرسطو»، والذي عرضنا له بعض المقتطفات من كتابه الخطابة (في مواضعها متن هذا البحث) أيمكن أن نجد عنده نظرية علمية للخطابة؟ وهل بدت الخطابة عنده "سلطة"؟ أم أنه كان له رأي آخر مخالف لفريقي النزاع الذي يراها سلطة والذي يراها أداة؟ وهل رفع من قيمتها وأعطاها أبعادًا أخلاقية واجتماعية ورد لها اعتبارها؟

٤. لقد كشف لنا هذا البحث عن التنافس بين معلمو الخطابة والفلاسفة، طيلة العصور الإغريقية التي عرضنا لها، وهم يدَّعون معًا الحق في تكوين الشباب: فالفيلسوف ينادي بالبحث عن الحقيقة، وبالحياة التأملية، بينما يعطي معلمو الخطابة الأولوية لصناعة التأثير في الناس بالكلام، وهو الأساس في الحياة العملية، وخاصة في السياسة. فكيف حدث أن غابت تقنية الخطاب الإقناعي هاته عن أفقنا الثقافي؟! ألا يدعونا ذلك إلى أن نفكر جيدًا في وضع فن الخطابة في مناهجنا الدراسية، ولوائح تدريسنا الجامعي، وإعادة الاعتبار لها في الفكر المعاصر؟ ألا يمكننا صناعة خطابة معاصرة مؤسسة على الثالوث (مناقشة أو جدل– حجة– إقناع)؟

الهوامش والمراجع

١ رولان بارت: البلاغة القديمة– ترجمة وتقديم/ عبد الكبير الشـرقاوي، نشـر الفنك، ١٩٧٠– ص١٧٤.

٢ Diogêne (L): vie doctrines et sentences des philosophes illustres, Garnier Flammarion, Paris, 1965, p. 145.

٣ Cicéron: Brutus au dialogue sur les orateurs illustres, trad. V. verger, Euvres complêtes de M. T. cicêron, T. 111, F. 1- Fournier libraire, Paris, 1816, p. 497.

٤ فوادســـواف تاتاركيفتش: الفلســـفة اليونانية– ترجمة/ محمد عثمان مكي العجيل، كنوز للطباعة والنشر، القاهرة– ٢٠١٢، ص٦١.

٥ Diogéne- la rêfêrence prêcédents. P. 150.

٦ أحمد عتمان: الأدب الإغريقي تراثًا إنســـانيًا عالميًا– الهيئة المصـــرية العامة للكتاب– ٢٠١٣، ص٤٣٣.

٧ المرجع السابق، ص٤٤٤.

٨ Navarre (O): Essai sur la rhêtorique grecque avant Aristote, Librarie Hachette etc. Paris. 1900. P. 11.

٩ Benoit (ch): Essai historique sur les premiers manuels d'invention rhêtorique Jusque a' Aristote, Joubert Libraire-Editeur, Paris, 1946, p. 15.

١٠ Croiset (A) et (M): Histoire de la litterature grecque, Albert fontemoing- Editeur, Paris, 1900, p. 39.

١١ أرسـطو: الخطابة– ترجمة عن اليونانية / عبد الرحمن بدوي، دار الرشـيد للنشـر، بغداد – ١٩٨٠– ١٤٠٢

١٢ أفلاطون: فـايـدروس (أو عن الجمـال) – ترجمـة وتقـديم د / أميرة حلمي مطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١ صـ ١٦٢

١٣ . ذكر «بيير شيرون» في مقدمته لترجمة كتاب الخطابة لأرسطو ص٢١، ٢٢. أن الباحث الأمريكي «توماس كول» قد آثار هذا الرأي في معرض تناوله لإعادة النظر

بشكل جذري في نشأة الخطابة عند اليونان، وقد أخذنا منه هذا الرأي. انظر:
Cole (T): Who was corax- Ics- 16, 1991, p. 81.

١٤ Desbordes (F): La rhétorique antique, Hachette, Pairs, 1996, p. 15.

١٥ ج. ف. دبسون: خطباء اليونان، ترجمة / أمين سلامة ومحمد صقر خفاجة (سلسلة الألف كتاب) – مؤسسة التضامن العربي – القاهرة – ١٩٦٣ – صـ ١٩ ، ٢٠

١٦ أحمد عتمان: الأدب الإغريقي- مرجع سابق- ص٥٠٠.

١٧ يعتبر كثير من الباحثين أن كتاب: الخطابة إلى الإسكندر مأخوذًا من كتيب كوراكس وتيسياس وعلى وجه الخصوص «انثيلم إدوارد شينه» الذي توسع في فصله الأول لتاريخ الخطابة قبل أرسطو، في إيضاح ذلك من كتابه الخطابة وتاريخها. انظر/
Chaignet (A- Ed): La rhêtorique et son histoire, F, wieveg Libraire, Editeur, Paris, 1988, p. 7.

١٨ دبسون: خطباء اليونان- المرجع السابق- ص٢٠-٢١.

١٩ Reboul (O) : Introduction a la rhetorique – PUF – Paris – 1991. P32.
وأيضًا: Chaignet: La rhêtorique son histoire, p. 12.

٢٠ أحمد فؤاد الأهواني: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط- الهيئة العامة للكتاب- ٢٠٠٩- ص٢٨٤ وما بعدها.

٢١ Dupréel (E): les sophists, Editions du Griffon, Neuchatel, 1948, p. 73.

٢٢ Dherbey (G. R): Les sophists, 4ed. Que sais- Je? Puf, Paris, 1995, p. 40.

٢٣ ibid. P. 41.

٢٤ ibid. P. 43.

٢٥ أحمد عتمان: الأدب الإغريقي- المرجع السابق، ص٥٠١.

٢٦ أفلاطون: محاورة جورجياس، ترجمة/ محمد حسن ظاظا، مراجعة/ علي سامي النشار، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠- ٤٥٧ ب.

٢٧ أرسطو: الخطابة، ترجمة / عبد الرحمن بدوي- مصدر سابق، ص٢٥٥ (1419B).

٢٨ أفلاطون: جورجياس- المصدر السابق- ٤٦٩ب.

٢٩ أرسطو: الخطابة- المصدر السابق- ص٢٥٨.

٣٠ Jaeger, (W): Paideia The ideals of Greek culture, vol. 111. Oxford- 1945- p. 60.

٣١ حربي عباس عطيتو: اتجاهات التفكير الفلسفي عند اليونان (العصر الهليني) دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية- ٢٠١٦- ص٢٢٤.

٣٢ المرجع السابق، ص٢٢٦.

٣٣ المرجع السابق، ص٢٢٧.

٣٤ المرجع السابق، ص٢٢٩.

٣٥ Dherbey: Les sophists, p. 64.

٣٦ هذه الكتب كلها مفقودة، لكن يمكن الاطلاع على شكل تلك المقارعات من خلال مصنف صغير مجهول المؤلف كتب قبل سنة ٤٠٠ ق. م بقليل تحت اسم الخطابات المزدوجة، حيث يشرح فيه مؤلفه أثر بروتاغوراس عليه، فيبدأ بطرح فكرة وجود خطابين مزدوجين عن الخير والشر، أحدهما يقول إنهما غير متمايزين، لأنهما مرتبطان بالظروف المحيطة بهما، والثاني يقول إنهما متمايزان لأنه بدون ذلك نسقط في التناقض. ويستمر المؤلف على هذا المنوال مع مواضيع أخرى، كالجمال والقبح، والعدل والظلم... إلخ. وفي كل موضوع هناك دعوتان يدافع المؤلف عنهما معًا ثم يختار إحداهما. انظر/

DeRomilly. J: Les grands sophistes dans L'Athénes de pêriclês. Editions de fallois, Paris, 1988. P. 118.

٣٧ أرسطو: الخطابة- المصدر السابق- ص١٨٦، ١٨٧ (1402p).

٣٨ أفلاطون: في السفسطائيين والتربية (محاورة بروتاجوراس)- ترجمة وتعليق د/ عزت قرني- مكتبة سعيد رأفت- القاهرة- ١٩٨٢- ص١٢١ (232b).

٣٩ يرى كثير من الباحثين أن بروتاغوراس، استوحى أسلوبه الجدلي من المدرسة الإيلية، لكنه هو الذي أدخله إلى المجال العملي، وأسس بذلك تقنية جديدة كان وراء تعميمها ونشرها.

De Romilly. J: Les grands sophistes. P. 120.

٤٠ لم يساهم أنطيفون في الحياة العامة بنصيب، وربما كان يترفع عن خدمة الديمقراطية، بدافع تعصبه الشديد للأرستقراطية، ولما كان قد عاش في ظلام دامس نسبيًا طوال حياته، فقد خطا فجأة إلى النور الساطع في سنة (٤١١ ق. م) وهي عام الثورة الأربعمائة، ويقول «ثوكوديديس المؤرخ» إنه كان الرأس المفكر الذي وضع تفاصيل خطط مثل هذه المؤامرة ضد الديمقراطية، ويبدو أنه كان إبان حكم الأربعمائة القصير، أحد قادة الحزب المتطرف المعارض لأنصار «ثيرامينيس» Theramenes الذي قام بعدة مساع في سبيل الصلح، وقد أوفد أنطيفون مع «فرونيخوس» وثمانية رسل أخرى للمفاوضة في أمر الصلح مع «اسبرطة» حتى يمكن الاحتفاظ بالحكومة الأوليجاركية، وبعد فشل هذه المفاوضات بمدة وجيزة، قتل فرونيخوس وسقط الأربعمائة، وعندئذ كانت الديمقراطية على استعداد للانتقام، ففر معظم زعماء الثورة إلى ديكيليا، وبقي أنطيفون وأرخيبتوليموس، فحاكمهما الشعب وأثبت إدانتهما بتهمة الخيانة، ونفذ فيهما حكم الإعدام- انظر/ دبسون- خطباء اليونان- مرجع سابق- ص٢٦، ٢٧.

٤١ مصطفى النشار: تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي (السفسطائيون- سقراط- أفلاطون) الدار المصرية اللبنانية- القاهرة- ٢٠١٥- ص٧٧.

٤٢ كما ينتمي أنطيفون إلى الجيل الثالث من معلمي الخطابة اليونانيين، بعد كوراكس وتيسياس، وجورجياس وبرتاجوراس.

Navarre (O): Essai sur la rhêtorique grecque avant Aristote, p. 120.

٤٣ ibid. P. 121.

٤٤ ibid. P. 125.

٤٥ G. Kennedy: The art of persuasion in Greece, Princeton. 1963. P. 351.

٤٦ رأى اليونانيين في الشاعر معلمًا لأبناء عصره، مسئولًا عن مستوى فنه، لهذا أتت أهمية «إيسخولوس» ككاتب مسرحي وكشاعر وكمكفر ديني، ولد إيسخولوس في عام (٥٢٥ ق. م) من والد ثري يدعى «يوفوريون»، ومسقط رأس إيسخولوس قرية «إليوسيس» موطن الأسرار الإلهية المقدسة. التي تبتعد عن أثينا بحوالي ثلاثين ميلًا. نشأ نشأة دينية وتأثر بالعقائد والأفكار التي كانت سائدة من حوله، فتشابهت آراؤه مع التعاليم الدينية التي كان يتلقاها أفراد جماعة إليوسيس الدينية، والتي لم يكن مسموحًا لأفرادها البوح بتلك الأسرار لمن لم يتلقها، لهذا قيل إن إيسخولوس قدم للمحاكمة بتهمة إفشاء أسرار إليوسيس من خلال بعض مسرحيات عرضها على جمهور أثينا، لكنه بريء من تلك التهمة، اشترك إيسخولوس في المباريات المسرحية وحصد عدة جوائز، كما شارك في الحروب ضد الفرس وخاصة معركة سلاميس، وتراوح عدد المسرحيات التي نظمها حسب المصادر المختلفة –بين تسع وسبعين وتسعين مسرحية، لكن لم يصلنا منها سوى سبع مسرحيات كاملة فقط، هي الفرس عام ٤٧٢ ق. م، سبعة ضد طيبة، المستجيرات، بروميثيوس مغلولًا، ثلاثية الأورسيتا عام ٤٥٨ ق. م، وتتكون من ثلاث أجزاء (أجا ممنون، حاملات القرابين، إلهات الرحمة) وقد مات إيسخولوس في مدينة «جيلا» بقبرص عام ٤٥٦ ق. م = ايسخولوس: النص الكامل لتراجيديا الفرس– ترجمها عن الإغريقية وقدم لها د/ عبد المعطي شعراوي– الهيئة المصرية العامة للكتاب– ١٩٧٨– ص٥٢ وما بعدها.

٤٧ دبسون: خطباء اليونان– مرجع سابق– ص٣٠.

٤٨ المرجع السابق، ص٣١.

٤٩ G. Kennedy: The art of persuasion in Greece, p. 356.

٥٠ أحمد عتمان: الأدب الإغريقي تراثًا إنسانيًا عالميًا- مرجع سابق- ص٥٠٧.

٥١ بدأ إيسوكراتيس تأليف خطبته "الباناثينايكوس" ومعناها عظمة أثينا ومجدها في سن ٩٤ أي في عام ٣٤٢ ق.م ولم يستطع إتمامها في ثلاث سنوات لمرض أصابه، وتحوي مادة غزيرة استعملت في خطبته "الأريوباجيتيكوس"، أي عن السلام، لمزيد من المعلومات انظر / دبسون: خطباء اليونان، ص١٣٧، ١٧٠

٥٢ أفلاطون: فايدروس – صـ ٢٧٨.

٥٣ Sincilair, T, A: A history of classical Greek Literature from Homer to Aristotle,1st ed, London, 1934, p. 374.

٥٤ Dionysius of Halicarnassus: Critical Essays with an English translation by Spelman by E. Cary (Loeb classical library) vol. 1, 11. London, 1998, p. 18.

٥٥ Ibid, p. 23.

٥٦ أحمد عتمان: الأدب الإغريقي- المرجع السابق- ص٥٠٨.

٥٧ المرجع السابق، ص٥٠٩.

٥٨ Isocrates: Antidosis, Panathenuicus and Against the sophists, translated by: G. Norlin (loeb classical library) vol. 11. London, 1956, p. 200.

٥٩ Ibid. 203.

٦٠ Demetrius: on style edited and translated by Stephen Halliwell, London, 1998, p. 24.

٦١ Isocrates: Against the sophists, p. 19.

٦٢ Ibid, p. 53.

٦٣ أرسطو: الخطابة، مصدر سابق، ص٣.

٦٤ دبسون: خطباء اليونان- مرجع سابق- ص١٧٠.

٦٥ Isocrates: Against the sophists. P. 9.

٦٦ Ibid, p. 10.

٦٧ Ibid, p. 11.

٦٨ دبسون: خطباء اليونان، ص١٥٠.

٦٩ Isocrates: Panegyricus. P. 7.

٧٠ Isocrates: Antidosis, p. 50.

٧١ Jaeger (W): Demosthenes, The origion and Growth of his policy, Berkeley California, 1938, p. 49.

٧٢ Ibid, p. 53.

٧٣ Barker (E): Greek political theory, London, 1960, p. 101.

ا يذكر «باركر» أن الرعيل الأول من مدرسة إيسوكراتيس الخطابية، إذا كانوا لم يؤمنوا بالتأملات الفلسفية المجردة، إلا أنهم مع ذلك لم يمانعوا من وجودها، بحيث تكون بمثابة تدريب للنشء عليها، على ألا تؤثر على عقولهم وتجعلها عقيمة.

٧٤ Isocrates: Antidosis, p. 183.

٧٥ لا شك أن الاسم سفسطائي مضلل، فلا يقصد به في حد ذاته أكثر من معلم أو مدرس للحكمة، ويستعمله قدامى الكُتَّاب في معنى تقريظي، ويستخدمه هيرودوت في حالة الحكماء السبعة، وفي القرن الرابع قبل الميلاد، كان الشعراء الهزليون ينظرون إلى اسم السفسطائي نظرة ازدراء، وهي عادة كانت شائعة في ذلك الوقت لاحتقار كل ما لا يفهمه العامة، ولكن أفلاطون كان يزدري هذا الاسم على أساس معقول، فعلى الرغم من إنه كان يعترف بأن بعض السفسطائيين أمثال بروتاجوراس كانوا رجالًا جديرين بكل احترام وإجلال، إلا أنه كان ينتهز فرصًا عدة ليستخف بالسفسطائية كفئة، وبالسفسطة كمهنة- انظر/ دبسون: خطباء اليونان- المرجع السابق- ص١٤٧.

٧٦ Jaeger (W): Paideia. The ideals of Greek culture. 63.

٧٧ Ibid, 64.

٧٨ Clark (D. L): Rhetoric in Greco-Roman, Education, New York, 1955. P. 51.

٧٩ Ibid, 52.

٨٠ Roberts: The science of Idiom- A method of inquiry in the cognitive design of language. PMAL,IX,1 P. 292.

٨١ Norlin (G): introduction of Leob classical library translation of Isocrates, vol. 11, London- 1956. P. 11

٨٢ Jaeger: Paideia. Vol. 11. PP. 89, 91.

٨٣ Reboul (O) : Introduction a la rhetorique. P40.

٨٤ أوجست دييس: أفلاطون- تعريب/ محمد إسماعيل- دار الكتب الحديثة- القاهرة- ١٩٤٧- ص١٣٣.

كان التعليم الفيثاغوري يذهب أولًا: إلى أن «الأشياء أعداد» أي أن هناك واقعًا أبديًا يتعالى على حواسنا ولا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ رقمية، هي العدد والنموذج الهندسي والانسجام. وثانيًا: النفس والتي هي إلهية خالدة ذات وجود سابق، وتستطيع أن تحقق ألوهيتها وتعود بعد الموت إلى مكانها المناسب بتأملها في الحقيقة العددية الخالدة.

٨٥ أ. هـ. ارمسترونغ: مدخل إلى الفلسفة القديمة- ترجمة/ سعيد اللغاغي- المركز الثقافي العربي- بيروت- ٢٠٠٩، ص٦٤ وما بعدها.

٨٦ أفلاطون: فايدروس (أو عن الجمال) ترجمة وتقديم: د/ أميرة حلمي مطر- الهيئة، ص٧ وما بعدها.

٨٧ أفلاطون: جورجياس- مصدر سابق (٤٥٤د) ص٤٢ وما بعدها.

٨٨ أفلاطون: فايدروس- ص١٣.

٨٩ أفلاطون: جورجياس- ٢٤٧ب.

٩٠ أفلاطون: فايدروس- ص٣٥.

٩١ أفلاطون: جورجياس- ٢٤٨جـ.

٩٢ المصدر السابق- ٥٢٢ د-هـ.

Theoretical trends in the art of public speaking among Greek thinkers from the fifth century until the beginning of the fourth century BC

Dr. Mahmoud Ayoub Mahmoud El-shenawy
Assistant Professor - Greek Philosophy
Faculty of Arts - Department of Philosophy
Kafr Al-Sheikha University

Abstract:

This research aims to present the theoretical trends of the art of public speaking among Greek thinkers "from the fifth century until the beginning of the fourth century BC." These are theoretical trends developed by thinkers who were aware of the importance of the role played by the art of speech or "rhetoric" in gaining belief - whether mental or emotional - By a listener.

Hence, rhetoric, alongside philosophy, occupied serious ranks in the Athenian metropolis, as these two fields were not merely fields of knowledge experimented in laboratories and classrooms, but rather a conflict existed between them regarding power and governance, so who should rule? Philosophers or preachers? The research showed that the theorizing of Greek thinkers in the fifth century BC had an impact on the development of the art of rhetoric, and there is no doubt that the outcome of these and other rhetorical theorizing bore fruit at the end of the fifth century and the beginning of the fourth century BC, as it opened the way for "critical" theorizing. Rhetoric has philosophical foundations according to both Isocrates and Plato, where rhetoric became for them an art and an industry that was aware of itself, when the lofty moral goal and purpose were defined for it.

Keywords: Philosophy, theoretical trends, rhetoric